محمد حيدار

خلف الأشعة

قصص

" إننا حينما نتواصل عـــــــــــن طريق الكلمة الأمينة

إنما نودّ لذلك النور الضئيل الـــــذي نتو همه يربط بيننا،

أن يزداد قوة على نحو يرى فيه كل منا حقيقة صاحبه"

المؤلف.

عقود الاسترعاء (1)

"هذا التضاؤل الذي يصيب بعض الأفراد
وهم خليقون أن يُعظّموا، وهذا التصاغر الذي
يصيب بعض الشعوب وهي خليقة أن تكبر،
وهذا الاتضاع الذي يصيب بعض الأجيال
وهي خليقة أن ترتفع"

د. طه حسين

ـــ أه، لستُ أدري بأية وسيلة نواجه ركب
المسغبة المحاط بنا من كل جانب؟
وإلى وقتما نجيد الرماية لإصابة تاج
السعادة المجهولة الهدف؟ البعيدة المنال؟
الصعبة المسلك؟

العم محمود قالها، وهو على مقربة من خيمته الفريدة الموقع، بواحة العناز الشاسعة، الممتدة عبر ضفتي نهر الناموس العظيم(2)، زوجه علياء وجدها وقد أوقدت نارا راح دخانها يتغازل في الفضاء، ويتراقص مع الهواء الطلق، إليها أمعن النظر، على حصير بال تمدد، حصير قد تسللت حياكته بفعل السنين، وتباينت خيوط نسيجه.

مكلوم الفؤاد كان، شارد الفكر، متراخي الأعصاب، الفقر هيمن عليه، الحظ انهزم به، بمستقبله لعبت الأيام.

كان في حاجة إلى دفء، فسارعت زوجه بالتلبية، مشعلا ثانيا أضرمته، اختفى تحت سحابه الكثيف كوخهما الذليل، وحي الشقاوة لاحظته على محياه؛ دنت منه، سألته حانية، وما أكثر أن تسأله:

ـــ إن بك اضطرابا باديا؟

ـــ اضطراب مزمن، يا ابنة مسعود.

ـــ ولم؟

وزفر بتأثر:

ـــ وهل يهدأ من عاش أغلبية العمر أجوف الجيب خاليه؟

ـــ تيقن يا هذا أن ملء الجيوب دين في ذمة خالق أصحابها.

ـــ كنا نعتقد هذا زمنا ما.

ـــ نستمر في اعتقاده.

ـــ ولكن؟

ـــ ذر الوسواس جانبا.

ضحك، أبو طاهر استخفافا بقولها دون أن يجيب، بينما امتدت يده الخشنة تجاه النويرة لإصلاح أعوادها المبعثرة، زفرة كادت تتمزق لها أحشاؤه أرسلها، هكذا صريحة كأقواله، بعدها تحققت علياء من أن الرجل يكابد همّا لا يطاق، وقد تكون أسئلة جاثمة على صدره، تأكدت بعد أن غاب في تفكير عميق، وكأن أحدا قد سلبه حقه، أو أن أعمالا سأمها قد أرهقت قواه، وأتلفت عقله.

ظل يستنكر عيشه، واقعه الوضيع: بيت حقير، نعيجات قلائل ترعى الحشائش الجافة على جانبي الوادي، تأثيث منزلي حالت عليه عشرات الأعوام، أبناء حفاة، عراة، بصيص قنديل تقليدي قد ذبل حشوه، تقادم عهد شرائه، مدفأ داخن.

وكم ناضل وناضل من أجل السعادة كما يتصورها، ولكنها بعيدة المنال، مجهولة الاتجاه، اللهم إلا المكسب الضئيل، لضمان لقمة العيش القذرة، حتى وإن كانت قذرة فعلا؛ تسبب الكبد دون رغد؛ وتتطلب بذل الجهود دون مردود.

الطبيعة المتآمرة ازدادت عبوسا في وجهه، القحط داوم الأرض، طال أمد الجفاف، الحشائش جدباء، دلائل الربيع توارت، السماء تخيلها بعد هذا الجو الصحو الهادي، الذي لا غيم فيه ولا سواد، وقد لبست ثوبا مدنسا لتنوح ضريح الأرض الغبراء، ترسل دموعها على فراش الهشيم المتطاير، نفسه حدّثته أن الرعود ستتناطح صاخبة، لتحطم هذا السكون الرهيب، الذي يلفُّ الوهاد، إن البرق سيضحك فيكشّط هذا الاكفهرار والغضب الذي يلفّع عيون الطبيعة، ساعتها سيهز محمود رأسه فرحا، يصفق بكلتا يديه زهوا، يصيح بكل قواه الصوتية:
" حمدا لك يا رب".

سيعمد إلى ثيابه الرثة فيردف منها أردافا، يصلح من حذائه القديم، يغادر جحره، يحث خطاه بحثا عن طاهر والشويهات، تحت خيوط مائية تنقذف في سباق عجيب، مقبّلة في لهفة واشتياق وجوه السهول المقحطة، ناشئة في أجوافها أودية جديدة تزخر بالغدران.

سيبلغ ابنه المبلل، المرتجف من كرات الزوابع وانفعالات الطبيعة، إذ لا ملاذ، فيزمجر في وجهه زمجرة يتمناها:

ــ ها قد اغتسلت النعاج، وزال وذحها.

يا بني، يجب أن نقابل غوث اللــه غير مقشعرين

ولا مرتعدين، بل نرغبه باستمرار الإضافة والمزيد.

طاهر سوف لن يجيب فيما يبدو، سينتظر الذهاب إلى الكوخ بصبر فارغ، وأمعاء أشد فراغا، وما أن ينطلق بعيدا حتى يصيح:" ما لنا وللمطر؟" سيقولها لأنه صغير، يجهل قيمة السحاب في قلوبنا معشر الكهول.

ارتد إليه شعوره فأدرك أنه غائص في لجج من التمني كعادته، وتمنى لو أن ملابسه تصير بالفعل هدفا لغارات الوابل والريح؛ وإذن لغمره الفرح، وبسرعة مذهلة تنتهي زيارة الغيث كلقاء كل حبيب، فتبخل السماء بمياهها بعد أن تصيّر الأرض وحلا تتفاقم غدرانه، تغوصه الأقدام حتى الكعب.

محمود أدرك أن تمنياته شيء، وواقع الأرض شيء أخر، مناقض تماما، فالحرارة تزداد ارتفاعا، والكلأ يتحول إلى هشيم تتلاعب به الريح في اتجاهات مختلفة، انتفض؛ غادر الكوخ.

كان فضا غليظا، ذا لحية سوداء، يبدو على ملامحه الثراء، ثيابه نظيفة وكأنه لا يقيم بالبادية، مبرنسا، معمّما كدأب سادات السهوب، فرسه تبدو أصيلة، مولّدة، فالعائلات المحنكة في الثروة ترفض اعتماد الخيل الدخيلة، يقال إن أباها جواد الشيخ مبارك **(3)** الذي حاز قصب السباق أكثر من مرة.

كان يتجه نحوه في عجلة من أمره، إنه سي عبد الحي، صاحب مئات النعاج، المالك لأفسح المروج الصالحة للرعي، حياه محمود فرد السيد في وقاره المعهود، قبّل يده المبسوطة في شيء من الازدراء، يدا شبه ناعمة، محمود كان على دراية به قبلا، فقد زارهم في ما مرّ من الأوان مرة، دعاه لتناول شيء ما إلا أنه أبى، وخيرا فعل، فأنّى لكوخ ككوخ محمود أن يستقبل هذه العظمة الشامخة؟! وأنّى لإطعام علياء أن يسمو إلى قمة الذوق الذي يتمتع به؟!

قواعد الحياة أحيانا تجبر المرء على إتيان ما يشبه المصائب، كدعوة محمود سي عبد الحي للإفطار.

ـــ جئتُك بعد إذ علمتُ سوء حالك.

وركّز الرجل عينيه على سحنة صاحب الفرس الأصيل، وهو يتابع:

ـــ جئتُك استرعيك قطيعا لي فرّ مني

البارحة راعيه، فما ترى؟

أطرق محمود هنيهة وسارع بالجواب دون أن يجد حاجة إلى التفكير:

ـــ موافق، موافق يا سيدي ولكنني اشترط

رضاك أولا.

على سُنة المرعى المعمول بها اتفقا، عبد الحي الوقور عاد من حيث أتى، طاهر التحق بوالده ليريحه، فقفل هذا عائدا إلى كوخه.

بعين العرعار المجاورة راعه منظرها؛ امرأة تستقي، ثياب دنسة متضاحكة الأطراف، ليس للصابون والماء من حق عليها، دنا منها بعض الشيء، تيقن من أنها هي، علياء زوجه، بقدها الرشيق، برجليها الحافيتين، بجرتها الضخمة، إنها كعادتها تسدل على وجهها خمارا رثا حتى لا يُباح جمالها للأعين؛ فلا تمتلئ بأوصافها، بنت أصل، نداها محمود بكلمة السر عند البادية:" إيــه". فالتفتت مبهورة؛ إنه محمود المرقع بعينه، عندئذ كشفت عن جزء من وجهها، وكأنها تحيّ مقدمه المفاجئ؛ فلاح الوشم على صفحتيه الذابلتين، على إيصال الجرة إلى ظهرها ساعدها.

انطلقا يتبادلان أطراف الحديث، إلى أن جاء خبر اليوم؛ وما أسرع أن يجيء؛ فهو الجديد بالنسبة إليهما منذ أعوام خلون، فأسر به الرجل إلى قرينته، والسرور يأخذ بتلابيب صدره، علياء لم يطاوعها خاطرها أن تلتقط أنباء كتلك وهي تواصل سيرها، فأسندت الجرة إلى صخرة عظيمة، كان قد رمى بها الطود إلى أسفله، وقالت:

ـــ إذن سنرحل مع إشراق الغد؟

ـــ تمهلي يا ابنة مسعود، لنتأمل العواقب

ونعلم كم سنرعى.

ـــ إن العواقب حميدة مادام العمل متوفرا

أما عدد ما سنرعى فإنك وطاهر لكفؤان

له مهما بلغ.

استأنفا سيرهما على أن يبتّا في الأمر بعد الوصول، جحرهما ها قد بدا من بعيد يخال غرابا قاتم السواد، أتياه مشغولي الفؤادين بفكرة الرعي وحدها، شأن أي جديد.

محمود خلا إلى مضجعه يسترق بعض القيلولة، وأنّى لواحد مثله أن ينام وقد سجل في حياته هذا الحدث العظيم؟ علياء واصلت إعداد الغذاء، لقد مضى من النهار أوفره قضياه كعادتهما شبه صيام لولا أن للصائم فطوره، ومن طحين الشعير أتيا على صحن كسكسي، مطعّم بلبن العناز.

ثلاث سنوات ونصف انطوت كأنها الدهر، كدّ فيها محمود وجدّ ولا ثروة، ورغم ما بذله وابنه من جهود مرهقة فقد بلغت الفاقة ذروتها، وطمت المجاعة، ووهنت أسباب السعادة، وظل الحظ شقاء وتعبا وإرهاقا.

إن سي عبد الحي ـ في نظر محمود ـ لا يرقّ؛ لا يذعن للتنازل عن طفيف مخالفة أو تفريط يصدر أحيانا عن رعاته؛ فأبسط خطأ كاد يؤدي إلى فقدان الشغل ذات مرة، وفقدان الشغل يعني في نظر سادة البادية إلغاء حق الشهور الخوالي؛ ولوجاء التوقيف في الشهر الحادي عشر من السنة المشترط عليها؛ وواقع محمود لا يسعفه للتضحية بثمن ربع ثانية.

"ضياء" المدللة؛ تزعم أن ابن الراعي الوقح يديم نظره إليها، الأمر الذي دنّس سوابقه العدلية في محكمة عبد الحي والدها؛ فلا مهرب إلا الامتثال للأمر الواقع، والإكثار من تقديس صاحب عشرات النعاج طلبا للعذر رغم أنهما لم يرتكبا جريمة تستحق اعتذارا.

علياء، هي الأخرى تسأم حياة العبودية والاستخدام، إذ هي عضو دائم بمجمع جلب الحطب والماء وحضانة أطفال الموال الكبير**(4)**، وهي تدرك أن ما أقدمت عليه الفتاة المدللة" ضياء" مجرد افتراء تدرك الأم علياء حقيقته، فلقد أخبرها طاهر بما حدث في حينه، وهي تذكره:

ــ ابنة عبد حي طلبت مني الذهاب ليلا إلى

ابن عمها.

ــ الأخضر؟!

ــ أجل.

ــ ولم؟

وتمتم وقد بدا عليه الخجل.

ــ وهل لبيت دعوتها القذرة؟

ـــ أبدا.

ـــ حسنا فعلت.

ـــ ولكنها...

ـــ ولكنها ماذا؟

ـــ هددتني بافتراء شيء يغيض والدها.

ـــ لم يبق إلا هذا لم نقم به.

بكت المرأة المسنة علياء بكاء فيه مرارة، بكاء اكتسح مختزنات فؤادها المكلوم، قلبها الدامي، إنها تبكي البؤس؛ فهو حرف العلة في صرف الدهر، وقواعده المختلة، كانت أكثر ما تستنكر منهم تلقيبها بامرأة الراعي بدلا من اسمها الحقيقي، ولكن ليس بمقدورها إلا الإجابة بسرعة، وآداب الحديث المختتم أبدا بنعم.

إنها امرأة فوقية؛ كل الناس لديها وفي عرفها رعاة: محمود راع، طاهر راع، علياء زوج راع، خيمة الراعي، نعجة الراعي؛ أمر غريب. وتفكر علياء؛ إن رفضها وابنها لأوضاع الازدراء والاستهانة لم يحرك شعور محمود الذي بات ينظر إلى عمله كنافذة استرزاق، دون أن يحمّل نفسه عبء تصفّح مركبات النقص التي تتوفر عليها هذه النافذة، بل كثيرا ما انتهر ابنه وزوجه عن الاستياء والتشاؤم، وحثهما على مزاولة العمل بتفاؤل وطموح.

إنه يدرك كل ما يجري من حوله، لكن العمل في نظره، منفذ حتمي لامتصاص ما يسد أرماق العيال، وكان توّاقا إلى تشجيع ابنه على القبول بمزاولة الرعي لفترة أخرى، بعد انقضاء الفترة المتفق عليها.

طاهر كان تمسكه بعمله مخافة غضب والده فقط؛ وفقط، وكم رفض تأدية ما يخرج عن نطاق المرعي من أعمال، وصل بعضها درجة أن يصير **"قوّادا"**، وقوي الشجار الخفي بينه وبين أبناء عبد الحي وأتباعه ممن يخافون عدوى التمرد على رعاتهم، سيما ضياء الفاتنة في نظر شباب الحي البدوي، التي أخذت تبالغ في التحقير به، لا لشيء **إلا لأنه سليل راع؛ لا تنمو تجاهه عاطفة؛ ولا يكبر على تقديره عقل**، كان في نظرها حيوانا يرعى الحيوانات، دون أن تجد من بين الجموع البشرية المحيطة بها من يؤاخذها على هذه النظرة المشوبة بالتميّز والفوقية؛ وهذا التفكير المشبع بروح التعالي.

وكم كان يحزّ في نفسه أن تردد على مقربة منه؛ أغنية شعبية تستهيض كرامة الراعي:

" يا الراعي يا بوشبكة شفّني حالك * إذا بغيت المعزة البيضاء انزوجوها لك"**

وأتخمه طعم الظلم، قاسى أنواع الإرهاق البدني، فضلا عن الاحتقار الذي يخلّف في النفس ما يخلّف، تعرّف على طباع بني المال؛ وقد كان طموحا للتعايش بالقرب منهم، استغور أفكارهم، تعوّد على التفلسف في مركباتها، علم ــ حق العلم ــ أنهم قوم آمنوا بالراحة على بساط شقاء البؤساء، بالكسل على حساب إرهاق المعوزين، بالأنانية إذابة لشخصية المستغلين.

لكن الشاغل لباله؛ هو هذا المزاج الخشن الذي يستقر داخل جسد كله لطافة، وداعة، جمال، لقد علم من خلال روايات وأساطير العجائز المنقولة على الشفاه، أن معظم العذارى الحسان في القرون الخوالي، كن يعطفن عادة على من هم على شاكلته؛ رعاة، خدما، فكيف انقلب الوضع وما سر انقلابه؟

بقية الأيام توالت مشخّصة هذا الشريط المفزع في نظر طاهر، أما علياء فنتيجة سخطها على المهنة المذلة، بادرت إلى إشعار طاهر بنية والده؛ ففطن، خشي أن يحمل معاناة أخرى قد يفرخ خلالها الظلم والقسوة؛ فقرر إجهاض العمل.

الدهشة ازدادت؛ الاحتمال عظم؛ طاهر يعود بمفرده دونما غنم، وفي منتصف النهار أيضا، الجميع ظن في الأمر زلتين؛ توقع سوء العقبة، طاهر ترك القطعان إلى جانب راع مثله حبيس الإرهاق والتحقير، عاد وفي ديوانه مشروع أخر للحياة، مناقض تماما لما تعوّدوه منه، إنه؛ و يا للعجب ينبذ فكرة الاسترعاء بالمرة، وجاء فقط ليقدم استقالته دون حتى أن ينتظر قبولها من عدمه.

علياء انتصبت أمام الكوخ، والدهشة تطل من عينيها بوضوح:

ــ ما هذا الذي أقدمت عليه؟

وابتسم وهو ينقر الحجارة برأس عصاه الخشنة:

ــ سوف التحق بإحدى حظائر الشغل.

ــ وإن لم يوفق مسعاك هذا؟

ــ المساعي كثيرة إلا أغنام عبد الحي.

هذه الكلمات فتحت في نفس علياء مجالا واسعا لمخاوف وافدة من كل آفاق، على ظنها غلب أن رئيس البلدية(5) رافض لطلب ابنها لا محالة؛ فهو سيأخذ برأي محمود، وبرأي عبد الحي، وهما رافضان لا شك في ذلك، يا للفاجعة! إنه تأويل حلمها البارحة إذ رأت وكأنها تستعد لإقامة زواج طاهر من "ضياء" سيدة السهوب، والأحلام أضداد كما يقال.

محمود لا أحد يسأل عن استيائه، إذ ازداد ضغينة على ولده، واتهمه على مسمع من الجميع، بالعمل على تخريب مستقبل الأسرة المناضلة من أجل العيش، إلا

أن عقدة الولد تجاه الرعي، وعند عبد الحي بالذات، كانت أقوى من التراجع، وبأعد عن المساومة، حيث ودّع الجميع إلا ضياء وارتحل غير آسف، ولا مبال وكأن الأمر يهمه لوحده، بعد أن تبيّن مزية الاستبداد بالرأي في مثل هذه المواقف.

ولم يفت "ضياء" استثناءها في الوداع، إلا أنها لم تعلق على الأمر بكلمة، وراحت تفكر في شأن طاهر لأول مرة في حياتها، إنها لم تأت تجاهه أي ذنب، هكذا يُخيّل إليها؛ **كان عليها فقط أن تثبت أنها ابنة عبد الحي، وهذا كل ما فعلت، وكان عليه في المقابل أن يدرك هذه الحقيقة وهو ما لم يفعل.**

الخبر تفشّى عبر أنحاء الدوار(6)؛ خبر جديد ونادر، لم يحدث مثله قط، أي واحد من الفتيان لم يتجاسر على ارتكابه كمخالفة، رغم أن الواقع عندهم شديد الشبه بواقع طاهر الذي دفعه إلى هذا الموقف.

عبد الحي أُحيط على جناح السرعة بما حدث، فقهقه صاخبا، عدّ المبادرة من وحي خواطر صبيانية لما تنضج بعد، وقال:

ـــ لكأني به شد الرحال إلى البلدية؟

وواصل قهقهته المتزنة، وتدخلت "ضياء":

ـــ ذره وشأنه يا أبتاه.

وهو يحدد النظر إليها وكأنه يراها لأول مرة:

ـــ أذره؟! وما دخلك؟

ـــ لقد رغب عنا فلن نرغب فيه.

ـــ ولغة غرامية أيضا؟

وتوارت "ضياء" عن نظر أبيها، لقد تفوّه بكلمة مخجلة(غرام)، مخلفة إياه وهو يعدّ العدّة للإيقاع بطاهر، وراح ينادي:

ـــ ضياء.

ـــ نعم يا أبتاه.

ـــ سترين صاحبك جاثيا على هذه الربوة صاغرا

أمام ما سأنزل به من أحكام.

ـــ أتنزل بكل ثقلك لمخاصمة فتى في العشرين؟

ـــ حتى يعلم الكهول من أنا.

كل ذلك لم يؤثرعلى مشروع طاهر إذ هو في طريقه إلى مقر البلدية، كان موظف مكتب الشغل التابع لها منهمكا في تدوين بعض الوثائق، رفع بصره بغتة، تراءى له، توقف عن الكتابة، وضع القلم جانبا؛ ابتسم، أشعل لفافة ناول طاهرا أخرى إلا انه رفض، طاهر يشدّ تفكيره سر اهتمام هذا الموظف به؛ لقد وجده كما لو أنه كان في حالة استعداد لاستقباله، ما السر في كل هذا؟ انتصب طاهر:

ـــ أطلب أن تسجلني ضمن الراغبين في العمل.

ولمظ الموظف شفتيه:

ـــ أعرف.

ـــ تعرف؟! ومن أنبأك؟

مسحة من غضب تجتاحه:

ـــ طلبك مرفوض. انصرف.

ـــ أريد تسجيل نفسي للشغل.

ـــ إنه لمن مصلحتك العودة إلى حيث كنت.

ـــ ذلك شيء يخصّني، وقد قلتُ فيه كلمتي.

ـــ ومتى كان لأمثالك كلمة؟

ـــ منذ مدة وجيزة تعرفها جيدا.

ـــ كل ما أعرفه أني أرفض تسجيلك؛ هل فمهت؟

قالها بغضب شديد وهو يغادر مكتبه، فتأمل طاهر عصاه الغليظة، الخشنة، ثم انصرف يئن بثقل الهزيمة، ودّ لو كان بمستطاعه أن يشفي غليله، لكن أنّى له ذلك وهو ابن راع لا يمتلك من الجاه ثروة؟ ولا يختزن من النفوذ رصيدا؟

وظل بطّالا يمتهن الراحة، وراحت "ضياء" تواصل مساعيها لدى عبد الحي علّه يعيده إلى سابق عمله بعد أن أظهر توبته.

وبعد مضي أزيد من سنتين، أقبل محمود على زوجه فرحا:

ـــ علياء ها قد تسلمتُ من مقر البريد حوالة

بمبلغ ألف دينار.

ـــ بعث بها طاهر، ألم يقل إنه آت من فرنسا؟

ـــ سيأتي خلال الشهر القادم بعد عامين وأشهر قضاها مغتربا.

ـــ وافرحتاه.

ـــ قضاها بأرض مهما كان الأمر ليست

بأرضنا، فرغم سخطي على فكرة الهجرة

استبدّ برأيه وهاجر.

ـــ ولكنكم السبب؛ جميعكم.

ـــ ذري الماضي يا علياء جانبا فإنه مرّ لا يطاق.

ـــ لقد رفع من مستوانا المعيشي على الأقل.

ـــ لكن الفضل في توفير السكن يعود إلى جهات معروفة.

كان فكر علياء منصرفا إلى التفكير في زواج طاهر، فالعروس مهما كان الأمر لن تكون " ضياء"، هذه التي يبدو أن أخباره قد شغلت فؤادها في الفترة الأخيرة.

---

(1) "عقود الاسترعاء" هي أول قصة للكاتب نشرت بالعدد "64" من مجلة الشباب:25 جوان 1973، وقد سبقت من حيث الزمن كل ما كتبه من قصص وروايات وأشعار ودراسات في الأدب وفي التاريخ، بحيث لم يسبقها إلا نزر من الخواطر ومقطوعات في الشعر الشعبي، وقد حظيت باهتمام أكاديمي، حيث شكلت مادة لرسائل جامعية عدة، لاسيما مذكرات التخرج في طور نهاية التدرج (الليسانس)، وتناولها الدارس السوري حسين فحام في جملة ما تناوله من إبداعات جزائرية في مؤلفه "صورة الأرض في الأدب القصصي العربي في الجزائر".

(2) "وادي الناموس" أحد أنهار الجنوب الغربي في الجزائر، موسمي الفيضان، تُجهل العلاقة بينه وبين " وادي الناموسة" الذي يتحدث عنه المؤرخون كحد غربي لتمركز قبيلة ميسيبيري التي كان ان شرقيها مجردة، أثناء العهد النوميدي، فهل وادي الناموس هو وادي الناموسة أم هما واديان جمعهما الاسم او يكاد؟.

(3) تلقائيا وخارج شعور الكاتب سنجد الشيخ مبارك أحد شخصيات رواية دموع النغم، وله جواد، لعله من باب توارد الخواطر الذاتية إن كان هذا يحصل.

(4) تطلق كلمة "موّال" على مربي الماشية (مالك الأغنام)، ولعل أصلها من " المال".

(5) هو ما يُعرف بالعمدة في نظم إدارية أخرى.

(6) الدوار في لغة البادية مجموعة كبيرة من الخيم غالبا ما تنتمي إلى جد واحد، بينما يعني في لغة الحضر (المدر) مجموعة من الدور.

التنكّر المزيّف(*)

– 1 –

قلب زهراء ابتعد عن حب عبد اللــه بن الموّال بقدر ما تناسى قلب أخيها بوداود حب ابنة الموّال فطيمة، وبتأثير ذلك الفارق الزمني والاجتماعي الذي يفصل بين واقع العائلتين، استحال الحب غلظة وازدراء لدى بوداود وزهراء تماما كما صار يأسا وقنوطا عند ابني الموّال التعيسين.

وكيف يدّعي عبد الله حبه لزهراء التي تنام على بعد ذراعين من الأرض التي لا ينام عليها إلا بعد أن يتخذ لنفسه بجوفها فجوة؟ وكيف يدّعي ودّها وهو لا يخطر لها على بال منذ أن وطئت قدماها أديم المدينة، فهي تنبذ ذكرى حبها له، تمحو اسمه من بين شفتيها محوا؛ إنها في الواقع أكبر من أن تراه، وأعلى من أن تتكلف ذكر عهدها له.

فطيمة تفكر فلا تجد فارقا بينها وبين هذه التي أحبها بوداود من الأعماق، وتهالك عليها بكل ما يمتلك من قوة، لا يرى في ذلك أدنى عيب، لا يحس بذلك الشعور المقزّز الغريب الذي ينغّص عليه دعته وهدوءه كلما تذكّر حبه لفطيمة.

تقف واجمة، محتارة، تتأمل الميزة التي تمتاز بها هذه الفتاة اللعوب، المستولية على قلب الفتى بوداود منذ سنة فقط، فلا تكاد تقف لها على فضل عليها إلا في ثياب لعب بها مقص الخيّاط فأكل غالبية طولها وعرضها، وسوى في ملامح وقسمات تسترق التجمّل بواسطة دزينات المساحيق وكميات الرتوش، وعدا بهذا الإقدام والجرأة اللذين تخالهما الفتاة البدوية تمردا على الحياء، وضربا من مقدمات الدعارة المفضوحة لا غير.

فطيمة تدرك أنها محل ملامة دون بوداود أو قبله على الأقل، هذا الطالب الثانوي الذي نبذ علائقه بها، وتنكر لماضيه معها، وأي ماض، تماما كما لفظ الريف، أصبح يجد خجلا وتحرجا في الانتساب إلى تربته وقد ترعرع عليها.

فطيمة قطعة متحركة من قطع الريف المهجورة، التي يكرهها بوداود، ففيم ملامته إذن؟ وتتساءل مجهشة وأحيانا منتحبة: ماذا تريد له أن يحبّ فيها وقد

استحال وجهها الفاتن وجها أعياه الشقاء؟! امتصت ورديته الأيام؟ وتركت البداوة بصماتها الخشنة على قسماته اللطيفة؟ على ملامحه الأخّاذة؟

شعرها الطويل، المنسدل إلى ما تحت كتفيها، هل له مقدور ردع الفتى عن اتجاهه الجديد؟

إن اهتمامات الناس اليوم، واحسرتاه، منصبة على ما في باطن الرأس وليس على شكله أو نوعية شعره، فالشعر على أهميته لدى الفتاة البدوية، نوع من الجمال المصطنع الذي يباع بدون مزايدة، وبأ بخس الأثمان:" بالأمس كنتُ وبوداود نلثم تراب هذه الأرض، خلف قطيع الماشية، ننعم بحياة الحب والوفاق".

فطيمة قالتها بلسان المسكنة، وهي تشد على ذراع أخيها عبد الله في حنان، فأرسل هذا زفرة مسموعة وقال:" كلانا أفقدته الأيام حبيبه بفعل السباق على التحضر". وهو في سهوم مريب:

ـــ لنشد الرحال إلى المدينة إن أردنا الإبقاء

على أحبتنا.

وكررت الفتاة قوله في شيء من التباطؤ والاستفهام الذي لا يخلو من استغراب:

ـــ ورفض والدي ألا تتوقعه؟ أم تراه يغامر

بماشيته، وسيلته للحياة؟

وهو يقهقه:

ـــ من أجل شيء لو علمه لعدّنا من العاقين.

وضحكت فطيمة من أعماقها، قبل أن يجهض أخوها ضحكتها بقوله:

ـــ أرى إبقاءنا على هذه المواشي يقف حائلا

دون تحقيق جميع أمانينا.

ـــ هي الأمل وما سواها ثانويات.

هذه مستحدثة غابت عن ذهن الشيخ بوزار، حين قال وهو يرمي بقطعانه إلى السوق:" الماشية مآلها الفناء لمن يريد أن يتحرر من عيشة البادية".

وهي تغير مجرى الحديث:

ـــ ألا تزال تفكر في زهراء؟

ـــ كل شيء في هذه السهوب يدعوني

إلى مضاعفة التفكير فيها.

ــ ثم ماذا غير التفكير؟

وقال ضاحكا:

ــ ثم ننتظر إلى أن يتم تمدين الماشية

كما يزعمون.

ــ 2 ــ

عبد الله كان يواصل ضغطه على والدته علها ترغم أباه على الاتصال بالشيخ بوزار طلبا ليد زهراء، فطيمة استهجنت الفكرة ولو أنها بالنسبة إليها جس نبض، ستعرف من خلاله موقف العائلة، جيران الماضي القريب، فضلا عن ذلك هناك عهد ضربته العائلتان أثناء وجودهما بالبادية.

تحرّك العزّال الصغير مع الإشراق صوب المدينة، الأيدي خلفه وضعت على القلوب، إن إخفاق التجربة معناه وأد غرام الأعوام الطوال، معناه أيضا الشعور لأول مرة بالكراهية نحو المدينة.

الشيخ بوزار لم يكلف نفسه الدخول في هذه الحيثيات والتفاصيل المملة، فقد اعتبر إقدام العزال نوعا من الاستهزاء بمقامه، حطا من قيمته كواحد من أشراف المدينة الذين استقر في عقول الناس بأنهم مدنيو أصل وليس بمهاجري ريف؛ فهو حتى أثناء اعتزامه استلام عقد من عقود الحالة الدنية من قريته الأصلية يجد تحرجا وامتعاضا وتبرما، فكيف سيُفسر وضعه إذا اعتاد رجالات القرية حط ركابهم بمنزله؟

أمام عينيه ارتسمت الفوارق الفاصلة بين العائلتين، فوارق معيشية، مكانية، ثقافية، بل وحتى في لون الرؤيا إلى الوجود والكائنات، كل أولئك مميزات أذابت أمام عينيه هذا الكائن البشري القابع إلى جانبه، والذي يقال له أبو عبد الله.

الأمر في حقيقته محسوم، لكن بالنسبة لواحد في مستوى إدراكه؛ أما في نظر الرعاع فيحتاج إلى حديث وولولة، حسنا سيتحدث:" احتراما لمعرفة سابقة بك أجدني كفّرتُ عن خطئك هذا نحوي، وقد كان ولايزال من حقي الانتقام لأنك أهضت كرامتي؛ أذللتني أمام معارفي، اِذهب ملتحفا بعفوي التام هذه المرة، لا تُشع الأمر و إلا ...".

أعاد العزّال كوب الشاي إلى الطاولة عملا بالعادة التي توجب الامتناع عن الطعام عند إخفاق المسعى، وأخذ يتحفز للانصراف تحت تغطية بصرية كاملة من الشيخ بوزار الذي راح يتفحصه بعينيه، إنه كهل دانس الثياب، مرقّع الأطراف، بائس المظهر، انصرف وقد خّيل إليه أنه كان محتجزا داخل أرض ضاع منه عقد عقارها، بلغ الباب المطرز الأستار، التفت وهو يقول بتلعثم:" يا شيخ بوزار، أرجو مسامحتك لقد أخطأتُ، فبطريقة لاشعورية وجدتني أطلب يد زهراء وما أدراك إلى فتى ...فتى...فتى...هو". واختفى في قارعة الشارع دون أن يتم كلمته.

العزال عاد إلى خيمته طافحا بالغيض، تراوده الرغبة في الانتقام، الانتقام ممن؟ من ابنه طبعا، من زوجه أيضا، ومن فطيمة، كلهم تآمروا وأوقعوه، إلا أن ما يشغل باله أكثر هو هذا السؤال الذي يجابهه بشدة وإصرار: كيف تحوّل الشيخ بوزار إلى صلابة الإسمنت المقوّى وقد عهده الجميع رجلا حنونا متسامحا؟

فطيمة تضاعف عبء معاناتها منذ الحادثة، تفكيرها أيضا في هذه الوقائع، وهي طبق الأصل من واقعها المعيش، إذ لولا أن نواميس البادية تلغي من بنودها طلب المرأة ليد الرجل، إذن لكانت هي الأخرى قد سمعت من الشيخ بوزار ما يجعلها تقذف بنفسها في متاهات البراري والقفار؛ إن لحبيبها حبيبة؛ فهل لها أن ترعوي؟ قد ترعوي لولا أن كل العقبات تستحيل أمام المحب حوافز تقوّي من عزيمته.

عبد الله كان يتمدد بزاوية الخيمة، في جو من التخمين المتصل والهواجس المستمرة، متصفحا الفوارق الزمنية، الاجتماعية، الثقافية الحائلة دون لقائه بحبيبته، ففي وقت مضى كانت الفوارق لديه بمعنى القدر، فالمكتوب هو تفسير كل شيء في نظره: النجاحات، الإخفاقات، المصائب، المسرات، ومن ثمة ليس في استطاعته أن يقاومها أو حتى أن يستنكرها.

فطيمة قطعت تفكيره:

ـــ آه، لم نرحب بالعريس؟

ـــ مرحبا بك أيتها العروس الحسناء.

وأضاف:

ـــ ألم أقل لك نشد الرحال إلى المدينة؟

ـــ والماشية؟

ـــ نصطحبها.

ـــ في سبيل الحصول على زهراء؟

ـــ ليست زهراء فقط؛ بل الحصول
على أكثر من زهراء وأكثر من بوداود.

واستطرد:

ـــ السعي والاجتهاد شيآن، والاتكالية والكسل
شيآن أخران، فالذي يدرك كيف يسلك ممر الحياة
لا يهمه أفي مدينة كان أم في بادية.

أـ وماذا عسانا أن نفعل في المدينة؛ في جو لا مكان
للأميين وللمعوزين فيه؟

ـــ عجبا أكل من بالمدينة متعلم؟ وهل الحب تعلّم؟

وضحكت حتى شرقت بريقها فأخذها سعال، وهو يواصل:

ـــ أتحسبينهم يدرسون كيفيات نسج العلاقات مع الغواني؟
أم تراهم يتعلمون قواعد الوصال؟

ـــ كفى، كفى.

قالتها فطيمة وهي تود الانصراف، في حين استمر عبد اله في حديثه المشفوع بالضحك:

ـــ أو لسنا أغنياء بعشرات النعاج؟
أم المدينة والحب أمران أوقفتهما الطبيعة على الشيخ
بوزار، على زهراء، وعلى بوداود؟

ـــ 3 ـــ

"ولتثلث المحادثات الجارية " والدتهما وصلت بغتة وهي تلهث من وعثاء سفر السقاء، قالت مستفهمة:

ـــ أرى على وجهيكما اهتماما كبيرا بما تخوضان فيه
من حديث؟

وبادر عبد الله:

ــ تحضيراته تخصنا واتمامه عليكم.

ــ عساه أن يكون خيرا يا ولدي.

ــ هو انتشال أنفسنا من أوضاع البادية،

من العيش على هوامش الحياة، الحياة التي

نطمح في الدخول إلى صلبها حيث يسبكنا

الوجود بقوالب أخرى ما أحوجنا إليها.

وحاصرته بنظرات غريبة غرابة كلماته الدافقة في غير اتزان:

ــ لعلها الخطيئة الثانية التي ستوقعنا فيها

يا عبد الله.

انصرفت لطهي الغذاء، في حين واصل الشابان همساتهما في الموضوع، وتدخلت في الحديث ويدها تطوي قطعة العجين:

ــ الواقع أني كاشفتُ أباكما في الأمر، فوجدته

متهيئا للتوطين، لكن بغير الشكل الذي تتحدثان عنه.

ــ وكيف يا أماه؟

ـ صارحني أن البلدية تنوي إنشاء قرية رعوية لمربي

الماشية، وهل هم غير نحن يا ولدي؟

فقال عبد الله على الفور بادية على محياه آثار البشرى:

ــ سنمكث بمضاربنا دون نزوح، وستصلنا

المنازل الفاخرة؟

ــ لا تتسرع يا بني سندخل الحياة المدنية دون

أن نخلي مواقعنا.

قفزت فطيمة من مكانها، قالت بلسان من حرّك ريح الطموح غصن قلبه اليؤوس:

ــ أجادة أنت في ما تقولين يا أماه؟

ـــ فوق الجد، لقد كان والدكما ــ كعادته ــ

يتتبع خطاب الرئيس " **بومدين**" وأخبرني بالكثير

إلا أن ذاكرتي لم تحتفظ سوى بكلمة واحدة

قد لامست أعماقي وهي:" إن هدف الثورة

هو القضاء قبل كل شيء على الأكواخ، وذهنيات الأكواخ".

وعندها داعبت ثغر فطيمة ضحكة وهي تقول:

ــ معناه أن الفوارق التي أطلنا الحديث عنها ستتبدد

بنهضة الريف؟

كثب الرمال المحاذي للخيمة، أخذ يشهد التصميمات الأولية، لبناء القرية الرعوية، الأشغال ظهرت في سباق مع الزمن، الأيادي تعددت تماما كما تعددت اختصاصات الأليات الضخمة، بوداود كان لزاما عليه أن يشد رحاله نحو القرية القائمة على أنقاض الماضي بكل سلبياته، في حملة تطوعية يتوسط جمعا من طلبة الجامعة، هواء البادية يداعب أنفاسه الكظيمة، سحب الارتياب التي حجبت سحرها انقشعت.

بمرأى فطيمة اكتحلت عيناه، جمالها لا يقاس بجمال عذارى الأساطير، جمالا طبيعيا غير مسروق ولا مختلس، طلاقة اللسان لم تفقدها قلة التمارين عذوبتها، ثقافة بديهية لا تفتقر إلا إلى القراءة والكتابة، صارحها بحبه، بتعهده على العمل بالقرية بعد التخرج، وقد أدرك لأول مرة أن الذكريات المترسبة في الأعماق الإنسانية لا يمكن لها أن تزول، وإن تظاهرت بالزوال أمام الأمواج العفوية التي تتوارى بنفس السرعة المقبلة بها.

(*) نشرت هذه القصة بالعدد"119" من مجلة الشباب في 11 جويلية 1974.

رحلة إلى الجنوب:(*)

" كان لقاء روحيا نقيا، يتشبّع به القلب، ويستكن إلى ذكراه الضمير،

ولم يـــكن لقاء جسديا دنسا، يُخمد العاطفة، ويلعنه العقل المتبصر"

وضع حقيبته المليئة بمعدات السفر في تراخ، على رصيف محطة النقل العمومي، جلس إلى جانبها، متأملا الأمواج البشرية القوية الصاخبة: رجال يذهبون ويجيئون لسبب أو لغير سبب، نساء محافظات وأخريات سافرات، أوجه تختلف ألوانها، تتباين درجات جمالها، تجمعات هنا وهناك، وكأن المدينة كلها على أهبة السفر.

وما الذي يهمه من كل هذا؟ إن الأهم لديه هو مجيء الحافلة التي سترمي به إلى بلدة إقامته، فتريحه من وعثاء السفر وعناء الانتظار، إنه كما يعرف عن نفسه رجل حيادي الطبع، لم يتسرب إليه داء الفضولية، انطوائي الخلق لم تجد الثرثرة نفاذا إلى لسانه المتعود على السكون، كان يبدو للآخرين في مظهر اللامبالي الذي لا يريد بالعزلة والتقوقع بديلا، رغم أنه شديد الحرص على الملاحظة، وتأمل الأشياء والكائنات.

حرارة أغسطس كانت تلفح الأوجه، تجعد كل رطب، كما وأن محركات السيارات تعج السكينة، تتخلل الهدوء بدويها، استرعت انتباهه حافلة قد أطلقت العنان لطنينها المزعج، حقيبته التمسها على عجل، أسرع نحوها، إلا أنها كانت تريد" وهران" وهو يتجه إلى الجنوب حيث مقر العمل والسكن.

عاد إلى مكانه والغيض يستبد به، لا لشيء سوى لتأخر الحافلة، مكانه قرب مكتب التذاكر النقلية، بصره يتتبع وجوه المسافرين، راعه انفراده، لاحظ أن للكل صديقا أو مرافقة إلا هو، لا ثاني له سوى حقيبته الرمادية اللون.

أمسك على خديه بيده كما لو أنه يعاني صداعا في رأسه، نظره سلطه بقوة على الرصيف الأمامي كمن يطرق لحل مشكلة، أو كمن تشاكل عليه أمران يميّز أيهما أنجع، حذاء عصري عالي الكعب، بوني اللون شدّ بصره، مستحدث الشكل، تطلّع

إلى...إلى...صاحبته، كانت تسدل على امتداد قامتها "حائكا"(7) النظر إلى محياها المحجوب لم يسعه، على مقربة منه وقفت فتاة بمعية أخرى طاعنة في السن ثالثة لما تنتم بعد إلى أطوار الشبيبة النضرة، لما تكتمل.

حيوانية حب الاطلاع ثارت ثورانا عجيبا على غير عادة منه، عيناه أجبرتا على النظر إليها بتيار مغناطيسي، إلى المحجبة، قوة خفية أحس بها تشده نحوها ، رغبة مستبدة تدفعه إلى التفرس في قامتها من أعلى فأخمص. إنه مظهر جدير بالاهتمام ذلك الذي ظهرت به الفتاة:

هيئة يتقبّـــــلها المعاصرون

وحشمة يعجب لها المحافظون

فلا هي مـــــن ذوات اللثـــم

ولا هي من السوافر العاريات.

إنها تواري زينتها بحائك قد أعطى قدها الممشوق رشاقة ولطافة، فضلا عن المهابة التي أحاطها بها.

لاحظ أنها تتفقده بنظرات من العين المستقلة عن الحائك، نظرات أحيانا جافة لم يستق منها إشارة ولا معنى، وطورا يُخيّل إليه أنها حاملة شيئا من اليأس والقنوط القاتلين، تمنى لو أن بمقدوره إزالة هذا الرداء الذي يحجب وجها لا شك أنه صبوح، ولسبب ما أزالت طرف الحائك عن جانب من وجهها، وهي تلمح صاحب الحقيبة بنظرة أخرى، مشعّة التقى خلالها تيارا العينين، فأحدثا جاذبية أكثر من ذي قبل؛ **وجه يعرفه؟!** ولكن أنّى؟ ومتى؟ وما اسم صاحبته؟

ذاك ما راح يبحث عنه داخل الذاكرة، فوجدها لا تنطوي على شيء من هذا القبيل، أصرّ فقط على أنه سبق إليه معرفة هذه القسمات أو على الأقل رؤيتها من بعيد، لكنها قسمات جديرة بالمعرفة الحقة، وليس بالرؤية المجردة الخالية من أي مضمون.

طرف الحائك أسدلته على الجزء العاري من وجهها، أعاد الفتى نبش ذاكرته، إنه على يقين من معرفة سابقة بهذه الملامح القاتلة للعواطف، للملهبة للوجدان، وبعد لأي من التفكير أومض في عينيه بريق الإدراك، تحقق؛ لقد رآها ذات مرة، وهي في زيارة لبلدته الريفية النائية، الملقاة على الخطوط الجنوبية من أرض الوطن الشاسع.

هناك، حيث يبدو الزائر للأعين بمجرد نزوله من الحافلة، حيث يتحول الغريب إلى ضيف مكرّم، إلا أن معرفته بها لا قيمة لها من حيث العمق، إذ هي تقتصر على وجه متوهج احمرارا، وقدّ رهيف يستميل الأنظار، ثم سكينة تستشف منها علامات العقل، ومؤشرات الرزانة والهدوء.

ريح اللوعة أحس به يجرف رماد التناسي، لتتقد جذوة الشوق الكامنة وراءه، جمال ـ في نظره ـ خارق للمألوف، أوصاف بعيدة عن العادة، في صدره اختلج شعور الاقتراب منها، لكن بماذا سيعلل هذا التزلف لو أنها أنكرت عليه ذلك؟ وهو الرجل الحيادي الطبع، البريء من أسباب الفضول والتودد المفضوح؟

رغم ولعه بكلا الحزبين: محافظ وسافر، فإن الحائك ظل في نظره أكثر إشعارا بالمهابة لمن يحاول اكتساح ما ينطوي عليه، فهو دليل واضح على أن التي ترتديه، إنما تضرب بالمارة عرض الحائط، غير أنه بقدر إشارته إلى مناعة صاحبته يظل أكثر توفرا على عوامل الجاذبية من غيره من الأزياء.

هذه الخواطر مرت بخلده، وهو يديم النظر إلى الفتاة كما لو أنه ممتثل أمام منصة مُهابة، بطريقة لا شعورية أشعل لفافة، أرسل دخانها كثيفا على ما حوله، تناول صحيفة يومية كان وضعها إلى جانب حقيبته، طفق يلتهم سطورها بعينيه، ثم ما لبث أن قذف بها إلى حيث كانت.

بينما هو أسير هذا الهواجس، ونظره يتفحص قامة الفتاة وقد خّيل إليه أنها تتابع تغيرات محياه تبعا لما يجري بصدره ويعتمل، حتى إذا رأى الحافلة وقد أقبلت في تباطؤ سارع ضمن الركاب نحوها، في حين اصطف المسافرون مغادرين مقاعدهم، كان يتأبط حقيبته في مقدمة الصاعدين، بخلاف الفتاة التي لحظها وقد انتصبت واقفة بعيدا منه، ودّ لو يتصدر الباب قبلها، أقلعت الحافلة بعد أن امتلأ جوفها بشرا، إن مقعده لبعيد من الفتاة بكثير، فكّر في اعتزال هذه المضايقات، في العزوف عن النظر إليها بالمرة، كان في هذه الأثناء مسندا رأسه إلى متكأ المقعد الأمامي، كمن يسترق النوم.

الحافلة توقفت بإحدى قرى الجنوب، تحرك في مقعده، لقد اختفت الفتاة عن نظره، فريق من المسافرين غادر مقاعده طلبا للهواء الطلق، رغبة في الراحة ريثما يُستأنف السفر، اندفع مغادرا مكانه، متتبعا خطوات الفتاة كما لو أنه يقتفي أثرها، دلفت إلى مقهى متواضع المظهر، إنه إلى المستودعات أقرب منه إلى صفة المقهى، هندسته، أبوابه، علو جدرانه، لا تمت بصلة إلى عالم المقاهي وأمكنة الاستقبال، إلا لوحة الباب وقد كتبت عليها عبارة "مرحبا" بخط شبيه بمخطوطات الآثار، جدران القاعة طليت بألوان زرقاء، رغم خلوها من أي تأثيث، إلا من الكراسي الخشبية المهشمة الجوانب، المتأكلة الحواشي.

الوقت لم يكن يدعو إلى جلوس، إلى جانبها اكتفى بالوقوف وهي ترتشف جرعات متتابعة من فنجان قهوة أمسكته بأصابع لطيفة امتاز أحدها بتقليد خاتم ذهبي براق.

هو الأخر أخذ يحسو فنجانا مماثل، كان همه الأوحد أن يدخل معها في نوع من الحوار، دون أن يحدد موضوعه، فالدردشة هي الأخرى لها جدواها في بعض الأحايين، لكن ماذا عساه يقول؟! بأي أنواع الحديث يستهل حواره؟ ! إن أية كلمة يعتزم اعتبارها فاتحة خطاب تصير باردة وعديمة المفعول؛ هزيلة، عارية من أي معنى، وقبل أن يتردد صمم على أن يقول بتلعثم واضح، وهو يلمظ شفتيه بلسانه من آثار القهوة:

ـــ حليلة فيم اعتقد؟

ورانت إليه بنظرة شاردة، رافقتها ابتسامة ظنها لامست شفتيها غصبا:

ـــ؟

وأراد أن يثير حفيظتها، علها تشاركه هذا التحدي المجهول الهدف والمضمون:

ـــ أو عانس كما يُخيل إلي.

هنالك انفجرت في قهقهة صاخبة تلطخت يداها أثناءها برذاذ القهوة من جراء اهتزاز الكأس:

ـــ بل عجوزا؛ وأرملة أيضا.

بتلك الكلمات همست وضحكتها لاتزال منعقدة على شدقي فمها، في حين ارتشف هو ما بقي من قهوته، وقال:

ـــ أرملة نتيجة ماذا؟

ـــ نتيجة القفص الذهبي.

استرقت صوبه نظرة خاطفة وهو يتساءل:

ـــ وكيف؟

ـــ نتيجة العجز والترمل.

ـــ وما ذنب القفص الذهبي في هذا؟

جبينها تقطب، صبغة من الاحمرار تغازل خديها، وهي تواصل:

ـــ إنه وحده السبب في تطويق العصافير البريئة.

ـــ ولكنه عشها الطبيعي؟

ـــ بل معتقلها الأبدي.

ـــ يستفاد منه أنك حليلة؟

ـــ لم أضع عنقي تحت مقصلة أحد بعد.

ـــ وفيم النقمة على حياة لم تتفسحي في أرجائها؟

ـــ لم اقترف إدانة تحيلني إلى غياهبها.

ـــ أتدركين الإدانة التي تحيل الزواج إلى معتقل فعلا؟

ـــ الانقياد المفروض طبعا.

ورانت إليه ثانية وكأنها تتضرع إليه أن يصدقها، غير أنه قال:

ـــ أقصد علته.

ـــ الشريك طبعا؟

ـــ سبب غلبته؟

ـــ قوته؟

ـــ مصدر هذه القوة؟

ـــ ماذا تعني؟

ـــ لا شيء.

شرع في شرح وجهة نظره كما لو أُعْطيَ فرصة العمر في الحديث، فأودع كلمته كل ما يعرف عن الموضوع كوصية ميت، عيناها اتسعتا عما هما عليه من الاتساع، في ذات الوقت كان طنين الحافلة يخترق قرية العبور الوديعة الغافية، سدد ثمن القهوتين، أسرعا معا نحو مقعديهما بالحافلة التي أقلعت فور ذلك، رجْع كلماتها يتردد بخلده، لكن ما خلّف آثارا على صدره مثخنة بالجراح هو شكل عيونها، بل وكل شيء فيها ترك مخلّفة عنده.

الحافلة توقفت عن المسير وهي تتوسط بنايات شبه شاهقة، تشكل وسط مدينة أخرى قد استسلمت لسبات عميق، الفتاة تصدرت الباب نازلة، مكث بمقعده لايرى في مواصلة المسافة التي تبقت سوى نوع من الانتحار المعنوي، نظره يتتبعها في حرص، إشارات خفيفة بالوداع صدرت عنها، تصاحبها نظرات مقصودة أخرى قد ألقتها على جثمانه الحي، النظرة أحدثت بصدره شحنة من الحسرات، شحنة دخانها التمني ولهيبها اللوعة.

الحافلة تواصل سيرها في غير ما احتشام، كما لو أنها، لم ترتكب جريمة في حقه بوقفتها القصيرة تلك، لقد توغلت في أ راضي الجنوب الفسيحة، تخترق سكون ليل بهيم، أطبقت فيه الطبيعة جفونها نائمة في وداعة متناهية، كيما لو أنها ارتاءت

في عامل النسيان وسيلة غايتها السلوان، أو كما أن الفراق قد أزال من قلبها كل أنواع الحنين، فلم يُبق به ما يتبقى من حثالة حب في القلوب الموجعة عادة.

المرأة المسنة التي كانت تجلس إلى جانب الفتاة قبل نزولها سلمته كلمات، هي في حد ذاتها تعزية، كلمات مخطوطة على رقعة ورق صغيرة عادية، يبدو على كاتبها الإسراع واهتزاز اليد من جراء اندفاع الحافلة، فضها على عجل؛ التصقت عيناه بخطيها المتباعدين وقد كُتب عليهما:

" كان لقاء روحيا نقيا، يتشبّع به القلب، ويستكن

إلى ذكراه الضمير، ولم يـــكن لقاء جسديا دنسا،

يُخمد العاطفة، ويلعنه العقل المتبصر" .

أخذ يقرأ، ويعيد القراءة، يكرر، ولا يصدق؛ يتساءل:" أيوجد في أيامنا مثل هذا التفكير؟ أيوجد من يبحث عن حب حقيقي؟!!! ".

(*) نشرت قصة" رحلة إلى الجنوب" بالعدد"128" من مجلة الشباب في:18سبتمبر1974

(7) الحائك: رداء نسائي خارجي أبيض أو أصفر يلفّ الجسد كله، ساد قبل ظاهرة الحجاب بقرون.

الإشعاع القاتل (*)

أناملـه أخذت تعبث بالورقة الصغيرة، أعاد قراءتها مرات عديدة، أحس بأرق شديد يصده عن النوم، تململ في فراشه؛ فراش المرض زفرة طويلة النفس أرسل بها، كأنها فاصل موسيقي أودعه أحاسيسه، آلامه آلام جسدية، آهات نفسية تبدد أوصاله، تلسع جوانحه في عنف السوط.

مد ذراعه في تشنج نحو معطفه المعلّق بمشجب الجدار، لفافة تناولها من علبة سجائره، ضغط على عود الثقاب في عصبية، نفث دخانه في إهمال:" إن السجائر هي الأخرى تفقدها المأساة تأثيرها على الأدمغة غالبا، فتصبح باردة؛ عديمة النكهة".

تمتم، كان يبعث التنهدات الحارة، الموجعة، مرسلة من جوانح أشد إيلاما حتى تسمع في شكل زفرات محمومة؛ الرقيب يستظهر أسراره، يلح عليه في سردها كلما خلا إلى نفسه، يبوح بها حتما بلا شعور، الرقيب لا يقتنع بالنتائج المعنوية رغم استيفاء العرض، دائما هي لديه ناقصة وغير متكاملة.

هذا الحيوان الجائع الذي يعيش بداخله؛ يدفعه إلى تحقيق مبتغاه اعتمادا على المغامرة، على التهور، على الالتجاء إلى المجازفة، حيوان شرس، قاس، لا يرحم، صريح لا يتوانى في الملامة، في التأنيب، لا يغتفر كسلا لا يتجاوز عن طفيف تهاون.

وصيته: إن الذي يستعيض بالتدخين طمعا في تبرير إخفاقه، إنما يؤكد انهزامه على جبهتين، أكثر ما يهيج الحيوان سمات ثلاث بارزة يراها غريزية في مأموره: سرعة التأثر، الوفاء، الاكتفاء بالحاصل، أما هو فينظر إلى النتائج المعنوية بمجهر يضخمها في حجم الرواسي، يصر على أن كل ما يخدم النتيجة القصوى إنما هو نتيجة في حد ذاته، فالرعشة التي تصيب أصابع الفتاة وهي تصافحه يستنتج منها هزة غرامية جنوحا، ومن الابتسامة الحانية المرتسمة على شدقيها تعبيرا عن رغبة مكبوتة، ومن ارتخاء الأعين هياما؛ ولكن؟

الرقيب الداخلي ينكر ضخامة التفسير، يستبدلها بتقزيم يقوّض ما ابتناه الخيال، فينساق هذا وراء اليأس القاتل، فريسة للحزن الممض، السيجارة تذوب بين أنملي سبابته ووسطاه، بصره ردده على الورقة، وهو يقترض شفته السفلى بأسنانه، بضعة أسطر فقط كتبت بمداد أحمر قان، كعلامة مرتسمة على عمود المرور، تحذر متابعة السير؛ تشير بالتوقف الفوري، بفضلة اللفافة رمى إلى المنفضة، الورقة وضعها جانبا، كان يختلس النظر إليها في حذر وإجفال، أطفأ الضوء إلا من بعض الخيوط الذهبية تسترقها شقوق الباب من نور القمر، كما لو كانت تمتصها في حذر وحيطة شديدين.

على الفراش استلقى ثانية، فراش المرض، ليست هناك جراح تلكز جسده إنما مجرد نوبات إغماء، ارتخاء في الأطراف، كما قال الطبيب كعادة حوادث المرور تترك أصحابها في غيبوبة تختلف حدتها باختلاف شجاعة المصابين.

تناوم، أجهد نفسه، سهاد شديد بات يتربص به، كتلة من الخواطر تترسب بأعماقه، وجيب قلبه يشتد، آلام تنبعث من جراحه النفسية، أفكار تعتصر دماغه، هواجس تدير ذاكرته في دوامة الماضي العقيم، رقيب جبار يستنطق خلايا فكره، يعتصر خباياه الباطنية.

ودون أن يخرط ورقيبه في جدل صريح، التمس إقناعه، عاود إشعال لفافة أخرى، امتص منها نفسا طويلا كأنه يستعد لخوض مناقشة فلسفية، راحة يده اليمنى وضعها على جبينه كمن يجس درجة حرارته؛ همس إلى الحيوان الداخلي الغافي:" إذا لم توقع هذه الاستنتاجات ببصمات تسليمك فكيف تفسر هذا النشيج الذي يمزق كلماتها الحالمة كلما همت بالتحادث إليّ دون سواي؟ لم هي تحاول مزج صوتها بنبرات أكثر أنثوية عند مخاطبتها إياي؟ ما أقرب تأويل إلى تظاهرها بكبت عواطفها كلما كانت بحضرتي؟ أي الموانع تجعلها لا تشيح بذراعيها في وجهي حتى في حالات الغضب شأن فعلها مع محدثيها من الأخرين؟ ألم تلحظ وقوفها واجمة كالجندي البسيط الذي فوجئ بحضور قائده فامتثل لأوامره الزاجرة صاغرا؟ ".

بل وما دواعي إضفائها على صوتها رقة دافقة تحيل مخارج الأحرف إلى رنات لطيفة باعثة على الإغراء، مصاغة في شكل أنغام شجية يتراقص على تقاسيمها القلب؟ أليس في تهدّج وجنتيها، وفي بريق عينيها ما يستحق الاستغلال؟ أي العوامل يفرض عليها احترامي بإفراط؟ مكانتي لا تضطرها لأن تضع نفسها وسط قضبان هذه الاستقامة المبالغ فيها؟".

الحيوان قهقه؛ انتفض؛ لم يعد مستقرا بأعماقه، قهقهته شبيهة بنهيق حمير، يستشف منها خلوه من ميزة الاحتشام، يستدل منها على شيء يخشاه هو عدم اقتناعه بما قيل، قلة اطمئنانه إلى النتيجة، وبأعصاب متوترة رمى الغطاء جانبا، أشعل الضوء، تساءل:" ما هذه العوامل النفسية التي قذفت في جوفه مثل هذه الأحاسيس

غير العادية؟ هذا الصراع العنيف داخل ضلوعه متى نما وترعرع؟ لقد أحب الفتاة منذ لا يدري، منذ يوم انمحى رقمه من شريط الذاكرة، لكن ليس إلى هذه الدرجة؛ درجة الأرق الشديد.

أتراها هي الأخرى أرقة وقد تنفس الليل؟ وإن لم يكن الأمر كذلك فهل انتصارها عليه كان محققا إلى هذا الحد؟ استوى على منضدة السرير، صاح من الأعماق:" أيها الرقيب الجبار أتشترط في الحب تصريح المحب بحبه لحبيبه؟ أللكلمات معنى في عالم الشعور والأحاسيس؟ أمن أجل فقدان كلمة واحدة يظل بيان الحب بدون توقيع؟ كلمة" أحبك"؟ ألا تعرف أن هذه العلاقات شبيهة بعالم الرياضة حيث تحركات الأعضاء الجسدية أصدق تعبيرا وأوقع أثرا من الكلمات؟ وهو يبلغ بصاحبه حدا خطرا يصل إلى ضعف المواجهة؛ شلل الحواس عند اللقاء، دون أن يفقده القدرة على كتمان ميوله القلبية.

كن أيها الحيوان من دعاة الكلمة، وإذن فأنت ترضي رغبة مهزوزة في نفسك بأوهام أخالك متحققا من شلو كفتها على ميزان الواقع، قال بصوت كأنه شخير خام:" تلك أقراص من منومات القلوب لا أكثر".

الحيوان كان ينصت باهتمام زائد، إلى أن خُيل إلى صاحبه أنه أقنعه فأسكته، أو ربما استطاع التحكم فيه فأماته، إذ بلفظه أنفاسه يصير رجلا خاليا من النوازع، يعيش للخيال، من أجله، بواسطته، عواطفه تتغذى بالإشعاع القاتل، لا مطمح إلى ما يعدوه مما يخرج عن دائرة المعقول، كذلك ظن وأدام الاعتقاد إلا أن الحيوان قاطعه، وهو أكثر شدة وصرامة في الرأي من ذي قبل:" إنها تغيرات وهمية يفتعل وجودها في الفتاة خيالك المريض، نتيجة دوافع نفسية جارفة، يزكيها بداخلك الإشعاع القاتل المنبعث من عينيها، فكثيرا ما يخطر ببال الأعرج أن الأرض هي التي تميد، وغالبا ما يرتاب ذو البحة في صحة أذن سالمة، خيالك المخدّر بأفيون الطرف الأحور، يحمّل الحركات العابرة تأويلا يفوق مدلولها؛ بذلك يبتدئ انخداعه، فيهب عواطفه مقابل ما لا يوهب له من مشتهيات جسدية، إنه لغريب أمرك؛ الوريقات تختبر حروفها، النظرات تعرض على مصفاة الوجدان ليحلل عمقها، نصيبها من التدليل على معاني مفترضة، الكلمات تدوّن بشريط الذاكرة، ترتب حسب حاجة المخيلة إليها؛ حتى الالتفاتات تعد وتقيّد! ما أتعس القلوب الشبيهة بالمخابر العلمية، ما أتفه الشعور الشديد الملاحظة".

وبُهت؛ فالحيوان يحلل المعضلة بلسان خبير مجرب، لولا مغالاته المتعمدة في الطلب، لولا إصراره على اقتحام "السد المنيع" وكل ما دون السد في نظره خيال، إنه يطلب من الفتاة التعبير عن حبها باللسان، وبكل جنبات الإفصاح في جسدها؛ فهدفه بين الأوراك وما يحول دونه إنما تغيير ليد الرامي عن إصابة المرمى لا غير.

مطالب يراها هو ملف مؤامرة، ولكي يتأمر الإنسان ضد حبيبه عليه قبل ذلك أن يستلبه صفة الحبيب، أن يدمل الجرح بالسلوان، وهو في ذلك بنفسه وبه لرحيم. إن الأصابع اللزجة التي ترتعش لنعومة الشعر المتهدّل على كتفي الفتاة، وتتسارع في شيء من الجنون والخفة لتتغمد خصائله الكثيفة

، لا يمكن أن تتحول في سرعة البرق إلى أصابع خشنة تندفع في تهور إلى تصويب فوهة المسدس نحو صدر هذه الفتاة بالذات، بادر مخاطبا الحيوان جهارا:" إن الذي يطاوعك وجدانك على أن تقدّ شرفه بمدية التعدي، أن تنقضّ على سمعته بمخالب العنف، لا ترغم نفسك على التودد إليه؛ لا تصطنع الهيام به".

الحيوان انتفض كمن يعتزم حسم موقف متأزم:" القلوب بعضها شراعي المزاج تتقاذفه أهواء صاخبة بين ارتفاع ضغط الإحجام، ودوافع الإقدام، قطع خشبية على تيارين: ما يشبه الخجل المترسب فطريا، الموصل إلى الجبن، والاندفاع العفوي الذي يصير تهورا".

الحيوان لم يضف شيئا لأن الديكة قاطعته وهي تردد تراتيل الصباح، الليل تقضى وما اتحدت القوى المتصارعة في نفس الشاب، وما اتخذت قرارا نهائيا في هذا الشأن.

مع الصباح انصرف متلكئا صوب مكتبه، الإشعاع القاتل يتراقص أمام مخيلته كالتنويم المغناطيسي، إنه الوحيد الذي يلحظ الإشعاع في عني الفتاة، أهي حالة غير طبيعية تمتلكها كلما قابلته؟ أهو وهم يسحر عينيه كلما قابلها؟ كثيرة هي المرات التي حاول فيها النفاذ إلى أعماقها من خلال نظراتها الحانية، ولكن البريق؛ بريق الجنون يسترق قوة بصره، يمتصها فتبدو نظراته هزيلة شاحبة، وينقطع تيارها فينصرف وهو يبتسم راغما، الحيوان ينكر كل شيء إلا الإشعاع القاتل يرتاب في أمره، مع ذلك هو بنظره غير كاف لأثبات التبادل.

إنه في طور النقاهة، جديد عهد بمغادرة الفراش، فلم يظل ساهما، إن قلبا مرنا سريع الذوبان أمام حدة إشعاع العين لجدير به أن يُستأصل من قفص الجوانح، فهو قلب تجتذبه بعنف قوة سحرية خفية، فينجذب في طواعية كالمستسلم الأعزل من أسباب المقاومة، منساقا انسياق الأسير الفارغ اليدين من علل الدفاع.

فكرة واحدة اقتنع بها، أيدتها قواه العقلية بإجماع: **هل حقيقة أن البشر مجرد قطع خشبية متناثرة على أديم بحر الأيام، يرمي بهم موجها الصاخب في اتجاهات مجهولة؛ ومع أنهم قاصرون عن كنه غيبها، ينقذفون على سطحها العاري في شيء من المغامرة، انخدعوا في تسميته بالثقة في النفس؟**

وهو قابع خلف مكتبه، واصل مناجاة نفسه:" ليت بالورقة الصغيرة مادة روحية تمتلك مفعول القضاء على أطماع الحيوان؛ عكس ذلك مع الأسف الشديد، إنها

تحتوي على شحنات موجعة تثبت تشككه، لكن؟ من الذي قذف بها تحت الباب بحيث عثر عليها؟! كلماتها تتوافق وما يفتعل بنفسه، أتراه يسارع إلى الاقتناع بورقة مجهولة فيجتث ما ابتناه من توقعات؟ أم يتشبث بخيوط وهمية، فيقتنع بميول قلب الفتاة وبراءتها من الذي رميت به؟

والاقتناع بهذا الشكل أليس خديعة؟ والاقتناع على هذه الصورة ألم يكن سذاجة؟ فصاحب الورقة لو أطلق قذيفته في غير وقت مرض الشاب لظنه نصوحا يود كبح جماح نفس هائمة ولو اختلق دعواه، وإن كان صادقا فما حاجة الصادق إلى التمويه والاختفاء؟ لعله مجرد عذول يهدف إلى إجهاض تجربة بريئة قبل أوان عطائها، لا أحد يدري.

مر بهذه الاستنتاجات لاهثا وراء ما يقوي اعتقاده، ويخدم هدفه، الورقة تناولها من جيبه معاودا قراءتها، محاولا أن يشتم رائحة كاتبها:" يا صديقي لم تعد جرة الماء العذب التي تتهافت على ادخارها بثلاجتك سوى فزازة خمر نتنة فاقدة للصلاحية، مخبأة برفوف خزانة في حانة مشاعة؛ أفتراك تتنكر لتنكرها أم تحتفظ بموقعك ضمن صف القربين؟ شفاء عاجلا".

انتصب مشدوها كمن به مس، الورقة مزقها في عصبية، خياله تراقص أمام الكلمات، إنه عاجز عن معرفة الحقيقة، قال وكأنه يردد على نفسه نص تعزية، بلسان حكيم لا يتعثر عقله بين ثنايا عواطفه:" **لئن تكونن ممتحننا للناس خيرا منك مبتدئا بالجناية عليهم".**

فقهقه الحيوان ساخرا وكأنه أثبت عجز صاحبه.

(*) نشرت هذه القصة بالعدد"153" من مجلة الشباب في 6 مارس1975

تعـــادل الخطيئـــــة: (*)

رمى الحقيبة جانبا، استلقى على السرير دون أن يرتدي بذلة النوم، مستعرضا المسافة التي قطعها بمعية رفيقه، مسافة طويلة حقا تلك التي تقطع عادة من الجنوب إلى الشمال، المرء بعدها يشعر بتعب وعياء مرهقين.

وهو لم يحس بالتعب والعياء فحسب، بل فراق خطيبته أشد وأقوى، البلدة غادرها منذ نصف شهر لقضاء عطلته، هي الأخرى تعودت على قضاء عطلتها خارج فرن الجنوب إلا أنها في هذه المرة رفضت مغادرة المنطقة على غير عادتها، لسبب يجهله هو، مما اضطرهما إلى الفراق.

كان يوما عصيبا ذلك الذي أخذ فيه مقعده بالحافلة المتجهة نحو الشمال، في حين وقفت " أنوار" كالواجمة تديم النظر إليه في سهوم، لا تبدي حراكا، بل تبللت عيناها بالدموع فور أن أدير محرك الحافلة.

موقف خلف أثره العميق في نفسه، فلم يزد على أن لوّح لها بيده وكأنه يشجعها على الصبر، بات مدمنا على التفكير فيها، في عفتها، في مثاليتها، في حبها المفرط له، كلها عوامل التحمت حولها قصة ارتباطه بها، رغم ما تخلل هذا الارتباط من أهواء كادت تحول دون احتوائها لولا إسراعه بإعلان الخِطبة، فالخطبة ملجأ كل خائف على حبه، لأنها المرفأ الحتمي لقافلة العلائق الغرامية عادة.

فالحب في بقاعهما، وفي كثير من البقاع غيرها، لا يُنظر إليه بعين الارتياح إلا إذا أصاغ نفسه ضمن قالب زواج، ثم لا يسأل عنه بعدئذ، **مع أنه ظل يعتقد أن الزواج من ضرورات الحب أكثر من حاجات الزواج إلى الحب، وعلى أي حال فإنه لا يطيل عمر الحب إلا نقيضان: الزواج والحرمان، الزواج ألفة للمتزوجين، والحرمان كشوق لحبيبين مَنئيٌ بهما عن بعضهما.**

فكر في هذه الخاطرة، لكنه أصرف عنها تفكيره لأنها فلسفة والفلسفة ليست مدار انشغاله الآن، فمدار انشغاله هو السؤال الآتي:" هل وضعت الخطبة حدا للأخطار المحدقة بهذه العلاقة القلبية التي يتصورها طاهرة؟ كلا، لم تبت في مأمن؛ فوالدة أنوار تغالي في سعر ابنتها، وهو عاجز عن تلبية المطالب الباهظة، والده

رفض الحكاية من أصلها، والدها مصرّ على إعطائها لبني عشيرتها، وكان شبه مرغم على السماح بإقامة هذا المأتم الذي يسمونه الخطبة.

عقبات تقف في طريق الزواج بعد أن عرقلت مسير الحب، لا يقلل من تأثيرها سوى قوة الوفاق الذي يربط القلبين المتصابيين، إن عليه أن ينام، كما نام رفيقه، ويقلع عن الاسترسال في مراجعة هذه الأحداث، أغمض عينيه، نوع من الأرق يحوط به، استبعد النوم، قفز من الفراش، غادر الغرفة، الليل تناصف أو يكاد، الشوارع خلت من المارة، المدينة استعادت بعض هدوئها، استرجعت شيئا من سكينتها، على عمود الشرفة اتكأ، الفندق ذو طوابق ثلاثة، ضوء خافت منبعث من باب الغرفة المتواجدة بالطابق الأسفل، لا يبدو منه سوى جذوة سيجارة يمتصها صاحبها بين حين وحين:" من يكون الزبون يا ترى؟. تساءل مترنحا إلى الأمام، مستطلعا، احمرار السيجارة يلمع بين شفتي الزبون، إنه مجرد زبون مثله فلم يحاول التفرس فيه، لا شيء يدعو إلى إثارة الاهتمام.

انثنى، أطفأ النور، نور غرفته، عاد إلى حيث كان منتصبا بالشرفة، إنه يبدو أكثر اهتماما من ذي قبل، إلى الأمام مال ثانية، الزبون تراءى له وقد أشعل النور، إنه يرتدي ثوبا أنثويا شفافا، شعره نسائي الجدائل أيضا، لكنه مع ذلك مدمن على التدخين إلى درجة يبدو فيها كشيخ متقاعد؛ أفتاة هي؟ بالتأكيد، أغنيمة سيقت إليه في مثل هذا المكان والزمان، وفي غاية السهولة؟ ولكن؛ ولكنه سيخون " أنوار"؟! كلا، كلا، وهل يضيرها تصرف مثل هذا لا يتنكر فيه القلب لها؟ دع أنوار جانبا وانتهز فرصة سانحة، أجل سأترك "أنوار" بالجنوب إلى أن أعود.

اعتزم إلقاء القنبلة الأولى في المعسكر المجهول، برأسه تدلى إلى أسفل، كقناص يسدد قذيفته نحو عرين أسد يخشاه، سيسعل بصوت مسموع، هكذا تكون بداية تنبيه الغافل؛ سعل، الفتاة انتبهت إلى مصدر الصوت، تطلّعت؛ ثم وبصوت منخفض، خافت شيئا ما؛ قال:" يا أنسة". لم تجب، أيكون عدم الجواب بداية لإخفاق العملية؟ ساد صمت، ثم أضاف بنفس الصوت الخافت:" هل الصعود إلى الطابق الثالث صعب غرفة "28"؟.

بات يتودد بدون جواب، ظن أن انخفاض صوته هو السبب، قرر الانصراف نحو سريره لينام، لكن صوتا أشد خفوتا أوقفه:

ـــ أمعك كبريت؟

ـــ أجل، خوذي.

بعلبة الكبريت قذف إليها، إلى الفتاة؛ يا للفرح لقد أجابت.

ـــ تعالي إذن؟

ـــ لكنني خائفة.

ـــ ممن؟

ـــ لا أدري.

ـــ لا أحد تخشينه؛ فالكل نائم إلا نحن.

ـــ انتظر حتى الثانية بعد منتصف الليل.

أيخطر زميله بالمفاجأة السارة؟ أم يستغل الصيد وحيدا؟ الصواب أن يدع الصديق نائما، يستبقي الغرفة مظلمة، لكن؟ كيف تكون هذه الفتاة؟ جمالها لا شك رائع، شعرها قد يكون متهدّلا؟ قوامها ممشوقا؟ من هي؟ سؤال ليس مهما، المهم كيف؟ وليس من؟ انتظاره طال، أو هكذا خيل إليه؛ الوقت تمادى في التباطؤ، آه، إن كعبا عاليا ينقر أديم الدرج؛ إنها قادمة، دقات قلبه تعالت، بارتياح يمازجه الخوف شعر، على الباب دقات خفيفة، تنم عن خفة الروح، عن لطافة الأصابع؛ فتح، لم يستبن ملامح الفتاة لشدة الظلام، تصافحا، تعانقا في صمت، أخذ بيدها نحو السرير، لم تنبس بكلمة، تحركت في سكون محبب إلى نفسه، لقد نجح مسعاه، لن تبقى سوى اللحظة الحاسمة؛ الإعلان عن ساعة الصفر، لكن طعم التلاقي لا يستلذ في الظلام، أينير الضوء؟ شيء في الإمكان ؟، وأي حرج عليه من صديقه إن وجده قد أحضر الصيد مشتركا على المائدة؟ النور سيشعله إذن؛ في خطى مسرعة تحرك صوب الزر الكهربائي؛ ضغط عليه، حنايا الغرفة أضيئت بغتة، تجمّد واقفا كأن التيار الكهربائي قد صعقه؛ اندهش للموقف؛ تلاعبت ملامحه؛ لسانه تعقّد عن الكلام:" لم يكن صيده سوى أنوار؛ وقد ظنها أخرى كما حسبته أخر".

(*) نشرت بالعدد"33"من مجلة "آمال" (ماي/جوان1976)

" من القصص الرمزي"

شبح خلف السرير (*)

"يبدو أن نمو الوعي الحضاري لدي الكائن
البشري في تدرجه المنطقي عبر التاريخ،
يخضع لما يشبه قاعدة النشوء والارتقاء
التي عنّ للبعض أن يعلل بها تطور
هذا الكائن فيزيولوجويا".

المؤلف

عاد العم بشير من عمله، دلف إلى غرفة نومه، علق خيزرانه المنحنية الرأس على مشجب الجدار الأمامي، عصاه وثيقة هامة ضمن محفوظات ذكرياته، لا تفارقه رغم أن حالته الصحية لا تستدعي إدامته على اصطحابها، يقلّبها أبدا بين الحين والأخر كأنه سيقتنيها، أو يراها لأول مرة: إنها كافية لفقأ أي عين تنظر شزرا إلى "علياء"**(8)**

كان يردد هذا باستمرار كلما تناول خيزرانه المنحنية الرأس، وكثيرا ما تناولها، أخذ مقعده المنتصب بإحدى الزوايا، جلس في وقار تعوده مذ وجد لنفسه مكانا تحت الشمس، لا يشعر معه بفضولية على الحياة، ولا بتطفل على قاعة الوجود، إن نفسه في الواقع لراضية كل الرضا عن زوجه، عن "عليا"، التي أعطته كل شيء فما بخل عنها بشيْ، قوامها، حسنها، سليقتها، إنها خالية من أي تعقيد خلقي، بعيدة عن كل التواء نفسي، لا زيف صورة، لا اصطناع موقف، ولا رتوش، بل هي جمال أصيل، وخلق أكثر تأصلا، فما أشبهها بوالدتها المرحومة العفيفة.

إن بشيرا لمن أكثر الناس اقتناعا بمثالية" علياء"، بخصالها الحميدة، بأوصافها المتعالية عن التقويم، المنزهة عن النقد، صورة الأنثى المثلى اكتملت لديها، صورة ارتسمت بخلده شابا، احتبلت بها مخيلته وهو يغادر طور الشبيبة نحو النضح والإدراك.

كلما سرحت أيادي خياله تبحث جيوب ذاكرته، ازداد اعتزازا بها، بـ "علياء"، كتعزية عن شبابه المجهض، غفرانا للخطايا الثلاث التي ارتكبها طوال سلسلة أعوام عمره، تكفيرا عن سيئات ثلاث خطتها يده على صفحة أيامه المواضي، فغدت مبرقعة فاقدة للون بياضاها الناصع.

شبابه أفناه مقترنا "بالحرة" امرأة لعوب، لا تدرك من الحياة إلا قشورها، جوانبها الفوضوية، ذئبة لا تهدأ إلا لحياة الغاب، فتاكة بكل ما حولها، ارتوى من أنواع الشقاوة، أنماط التعاسة، فقذف بها إلى خارج دائرته الحياتية، كانت تخاطبه في عبوس وانقباض، وبصوتها المبحوح:" لا يحدث بيننا انسجام إلا إذا خففت من هذه الهالة الإنسانية المبالغ فيها.

كان لا يجيب؛ يظل ساكتا إلى أن جاء الخلاص؛ الطلاق، عرى ارتباطهما انفصمت، خطبته على الآنسة " أميرة" تمت، وهي امرأة ذات مال، ظنها تفضل سابقتها حُسنا وأسلوبا في الحياة، قلبه اطمأن إلى خطواتها الأولى، اقتنع بتحقيق بعض آماله، إلا أن نفسه ظلت شاعرة بأن شيئا ما يعوز كمالها، اكتمال سعادتها، وسرعان ما دب النفور إلى قلبه، أدرك، أن حبل طباع هذه السيدة قد انفتل من خيوط الغلظة والدلال؛ بله والشره أيضا، الابتسامة تصطنعها، الفضيلة تتظاهر بها، عن نفسه بحث في دوامة كبريائها، فوجد أنه صار في طوره هذا مجرد حمّال للحطب، سقّاء للماء، ليس إلا؛ ليس إلا، فسارع إلى طلاقها لتنسحب غير مخلفة على مهده مولودا، الطلاق هذه المرة كان أكثر صعوبة، لكنه أسهل معاناة من المعاشرة الأليمة.

محيا "غنية" في هذه الأثناء كان يغزو أغوار قلبه، إنها ستضفي على المنزل بصيصا من حيويتها الدافقة، تنسي زوجها ـ وقد سيقت إليه ـ آلامات العهدين الماضيين، جراح نفسه شعرت بنوع من الدفء بالقرب من "غنية"، هاته المرأة التي لما تتكشّف حقيقتها بعد، فهالة الاستقامة التي تحيط بها سحنتها النحيفة لا تتركه يصدر بشأنها حكما، لكن سرعان ما تبدّى كل شيء؛ فما اختلفت عن " أميرة" إلا في خصال ثانوية، فهي الأخرى قد أحيك نسيج خلقها من عوامل الكبر؛ الخشونة، الأبهة، ثم احتقار الضعفاء، فكان لابد أن تغادر الغرفة ومن نفس الباب.

مطالب الطلاق هذه المرة شبيهة بتشنجات مخاض الولادة الأولى، تركت آلامها الموجعة على صدر الرجل، ابنا عاقا هو" زايد" خلّفته" غنية" على مهد بشير، عضوا مشلولا؛ بذرة شوك نبتت على ثرى العائلة، غريبا كان على عالم والده، إلى درجة أنه أخذ يشك في صحة انتسابه إليه.

أخلد العم بشير إلى الصمت برهة، انقطع تيار حواره الداخلي الدفين، إنه يرغم ذاكرته على استعادة صور من ذكرياته الأليمة مع هذه الأنماط من النساء، افتقر إلى زوج غيرهن تجد ميوله النفسية تمازجا ومواءمة مع طباعها، تلقاء السلة

الموضوعة بالزاوية الأخرى انصرف، يداه انطلقتا تبحثان خباياها الملئ بالمشتريات، تفاحة أخرجها منها، راح يقتضمها بأسنانه، بجريدة اليوم التصقت عيناه، " علياء" بقامتها الهيفاء وقفت تنتظر أوامره، شعر وكأنه يتفيأ حنانها الوارف، كشجرة معطاء، يتنور صفاءها الروحي المشرق، انحنت باتجاه السلة، حملتها، نحو المطبخ انصرفت، إشراقة محيا، ابتسامة حالمة، خطى متزنة، معتزة في تواضع بجمالها الفائق، بخصالها التي هي مقتنعة بتوفرها عليها، اقتناعا لا تزيله أكاذيب بنات الحي، فهي لا تطلب إلى أي واحد بعد زوجها أن يقتنع ، أو إلى أية امرأة أيضا، ذلك أنه ليس في وسع أية امرأة القول:" ما أجمل علياء وما أقبحني". وأي رجل لا يمكنه القول: "ما أجمل زوج بشير وأقبح زوجتي". قد يصارحون أنفسهم بهذه الشهادة؛ لكن فيما بينهم وبين أنفسهم فقط.

من مكانه تحرك، تبدّى على وجهه الأشيب نوع من الانقباض، ظل ماسكا على الجريدة، سمّر نظره إليها دون أن يقرأ، عاوده التفكير في علياء، وما أكثر ما يعاوده التفكير في هذا الموضوع الذي هو من أشد المواضيع قربا إلى نفسه، التصاقا بقلبه، بعقله.

ليته اهتدى إلى" علياء" قبل أن يمر بتلك المنعرجات الملتوية؟ أم أن الإنسان ملزم باقتراف الخطيئة قبل بلوغ الصواب؟ تساءل العم بشير في قرارة نفسه، تنهدا تنهدا مسموعا قذفته في حلقه حدة الأقاويل، أقاويل مفترات، تريد أن تفقده فردوسه.

فعابد جاره، أخو غنية مطلقته، خال ابنه زايد، ينعت علياء بنعوت لا تنتمي إلى واقع هذه الزوجة الفاضلة على الإطلاق:" سليلة قوم غرباء عن الحي؛ قد جيء بها من مضارب مجهولة، نائية!". في دخيلته يدرك تمام الإدراك أنها ابنة حقيقية لعم زوجها "بشير"، فجدهما واحد ومعروف، جابر جار له ثان يزعم أنها لا تحسن القيام بواجبات الأسرة، تعمل على محو مركز زوجها كرب عائلة، ولكن بأسلوب لا يتفطن إليه.

العجوز التي تحصل على قوتها اليومي بالتسول، المقيمة بالكوخ المحاذي لمنزل بشير، وتعيش على فتات موائده غالبا، تعيب على " علياء سكينتها، عملها الدؤوب، تتهمها بشتى التهم، في حين يؤكد العم بشير لنفسه أن هذا الكائن الملائكي من أشهر بنات الحي براءة مما يرمونها به من نعوت لا تطابق واقع علياء الحنون، فهي قد أعادت إلى الأسرة المتشنجة طمأنينتها التي افتقرت إليها، ودفئها الذي باتت في مسيس الحاجة إليه، إنها في حقيقة الأمر تكفير عن الخطايا الثلاث.

كان العم بشير يؤكد لنفسه هذه الحقائق، ويتساءل: ماذا يريد هؤلاء؟ سؤال يثير حفيظة الرجل كلما فكر في هذا الأمر، وكثيرا ما فكرفيه؛ يريدون له استرجاع "غنية" الأرملة التي تحولت دارها إلى بيت دعارة معلوم، ما في ذلك شك، إن أزيز

كلماتها النابية لا يزال يرن في أذنه:" كان والدي كلما أقبل إلا وأسرع إلى تقبيل يد والدتي".

سكن العم بشير وهو قابع بمكانه، مستديما نظره إلى خطوط الجريدة، يود كبت شحنات صدره، أخذ عن القراءة، استطاب الاسترسال في هذه الخواطر التي لا يتوقف شراعها عند مرفأ معين، أصاغ شحنات غيظه في تساؤل ساخر:" لو بقيت الحرة على قيد الحياة إذن لحبذوا لي فكرة الزواج منها مجددا؛ هل في إمكانهم إعطائي زوجا أحمد خصالا من علياء؟ إن من ببيته زوجة شوهاء لا يُطرق بابه رغبة في خطبة حسناء؛ ففاقد الشيء لا يعطيه".

تساؤلات العم بشير أبدا مشفوعة بشيء من العجب، إنه ليعجب لحلم علياء، لبعد أناتها، فهي لا تتحرك إلا بوحي من زوجها، مترفعة عن كل غلواء، ما أعظم حلمها إزاء معاملة ربيبها العاق" زايد؟ الذي لا يتوانى خاله عابد عن شحن نفسه بالضغينة، فهو يحقن جوفه حقدا على امرأة بالغت في إكرامه. إنه شبيه بجرس منبه يتم تكييف ازراره بمنزل عابد لترن بمنزل علياء، ومع ذلك لا تبدي بدعواه اكتراثا.

عابد حسبه وسيلته لتفتيت أواصر الزوجية بينها وبين شريك حياتها، لكنه ظل جهازا بشريا زائدا على مركب الأسرة، حضوره كغيابه مما دفعه إلى أن يديم المقام بدار خاله، الذي لطالما منّاه بقرب وفاة والده بشير، هذا الذي تحول حياته دون اقتسام الإرث؛ والأهم طرد علياء الغريبة من لمنزل، لكن انتظاره طال وما مر بثنيته انتظاره صيد، خاله صار لا ينام إلى أن بدت آثار السهر على سحنته، كان يردد لابن أخته:" لابد من القضاء على علياء، على بشير؛ على هذه العائلة التي أحدثت في الحي انقلابا، وفي السلوك تحولا، وفي الأفكار تغيرا؛ فهي من علّم النساء الحقيرات مجابهة أزواجهن، تشبعت بأسلوب المنافسة الذي لا يمكننا مجابهته إلا بالحسد والنقمة والرغبة في القضاء عليها".

قال ذلك وربتت يده على كتف زايد، وكأنه يداعبه قائلا في تمن:" أوه؛ لو بلغنا الهدف، فأصبحت أنت سيّد الأمر في ذلك المنزل". ثم أشار بيده إلى منزل عياء واستطرد:" حينها ستعود غنية إلى هناك، وأصير أنا ربا شرفيا للأسرة، لا تنس أنني سأزوجك من ابنتي، ليتم الانسجام التام".

حرك شاربيه الكثين في شيء من الاعتداد بالنفس، لقد اهتدى إلى حيلة أخرى، ربما هي كفيلة بتحقيق مراده:" عليك ان تقيم بمنزل والدك، لا تترك لهما متسعا من الوقت، انتهز كل سانحة، إنما خراب البيوت يسهل من وسطها، انطلق"

وانطلق زايد فعلا نحو المنزل، يحركه شوق غريب إلى تحقيق أمل خاله، فهو لا يناقض أمله، دقّ الباب، ثم ولج، صفقه في عنف، كان الحزن يستأثر به إلى درجة أرغمت علياء على أن تسأله:

ـــ زايد ما بك؟

ـــ إنك الوحيدة مبعث مأساتي.

سكتت مفضلة الانصراف كعادتها، تسأل نفسها عن دواعي مبالغة هذا الشاب في كراهيتها، فعنايتها به تفوق غالبا عنايتها بأبنائها، أرجعت ذلك إلى طبع سيء، إلى رضاع قذر وتربية أقذر.

الليل مد سجافه على الكون، الجميع نام، الوالد بردهة المنزل اتقاء للحرارة المرتفعة، وعلياء بغرفة منامها الخاصة، الجميع نام إلا زايد بات في أرق شديد:" إن عليه أن يفعل شيئا!". نفسه الساهرة صورت له فكرة شيطانية سيقدم على تنفيذها دونما تفكير في المغبة، عليه أن يقتل اباه، ليتحكم في عقرب ساعة اقتسام الإرث أولا، ثم طرد علياء ثانيا، فامتلاك المنزل ثالثا، طيف من التمني مر بهجير حيرته، ما لبث أن استحال سؤالا:" ألا يمكن استغلال طيبة هذه المرأة للتواطؤ معه في تنفيذ العملية؟".

من يدري؟ قد ترغب في الخلاص من زوجها، لكن كيف يمكن إدخالها إلى قفص اللعبة؟ أيكون جمالها الفائق هو قائده إلى خيانة فراش أبيه؟ قلبه لا يعرف للجمال طعما؟ لكن لابد من إشراكها في الخطة، قبل ذلك يتحتم عليه الارتباط بها جنسيا، فبذلك يتم احتواء الأنثى؛ التسرب إلى عقلها من خلال نقطة الضعف، الغطاء رمى به جانبا، نهض من مضجعه خائفا، يترقب كل حركة تصدر عنه، صوب غرفتها اتجه، بلغ الباب، توقف، إنه يستعيد بعض ما افتقده من جرأته، يجمع شتات إقدامه، إنه إلى جانب تحقيق رغبته القصوى سيذبح طهارة علياء بخنجر غله، يهيض كرمتها، يدنس صفاءها الروحي، يدوس على قدسيتها، يصوب قذيفة اللعنة إلى محراب مثاليتها؛ فلينقض بغتة على خصالها الخلقية التي أزعجت خاله وضايقت سكان الحي، حينها سيكون له عليهم فضل وأي فضل.

لسوف يرتبط بها؛ يقتل والده، ينسب الجريمة إليها؛ يطالبها بثأره، لما وصل إلى هذا الاستنتاج تقدم، فالوقت لا يمهل، تقدم فاتحا باب الغرفة برفق شديد وفي هدوء تام، تراءت له علياء على نور القمر المرسلة أشعته من النافذة، انعكست على بعض أعضاء جسدها العارية، كان ثوب النوم لا يغطي سوى ما فوق ساقيها البضين، وقد امتدتا كسبيكتين من نور.

تحرك من مكانه ثملا بمنظر الأطراف الجسدية المثيرة، يده وقد أصيبت باهتزاز شديد وضعها على ساق "علياء" العاري، الدافئ، البض، كانت مستغرقة في نوم عميق، ألحق نفسه كلية بموضع يده، متجنبا أي صوت يصدره هيكل السرير من تحتهما، جثا على ركبتيه وكأن خطته قد انتهت عند هذا الحد من المغامرة.

أيوقظها ليصارحها بما اعتزم عليه؟ إن عليه أن يتسرب إلى عقلها من خلال نقطة الضعف؛ من خلال الارتباط الجنسي، وفي دوامة التدبير نسي نفسه، فانساقت يده نحو شعرها المتهدل على كتفيها يلامسه، يتبطّن خصلاته بأصابعه، يشد عليه بإحكام، كما لو أنه يختبر مقدار نعومته ومدى امتداده، بعد ذلك ضغط على عضلة ساقها، أي جسد هذا؟ تساءل، ثم تراجع وقد هاله أنها تحركت فوضعت راحة يدها على طرف مؤخرتها السمينة الناعمة، وقد كانت تنام على جنب، حركتُها تلك أغرته بها أكثر، فأخذ يسأل نفسه: هل هي حركة عفوية صدرت عنها وهي في حالة نوم؟ أم هي إماءة مقصودة تعني أن الطريق أمامه صار مفتوحا؟ وإن لم يكن ذلك هدفها فلماذا الإشارة وإلى عضو حساس كالمؤخرة بالذات؟ وإذا كانت الحركة مقصودة فهل هي دعوة مفتوحة لمزيد من الاقتراب؟ مزيد من الالتحام؟ مزيد من الاحتضان؟ وإلى هنا دخلت رغبته في تناقض مخيف غير قابل للحسم؛ فهو يخشى عاقبة استيقاظها، وفي ذات الحين يريد لهذا الاستيقاظ ــ إن حدث ــ أن يأتي مقترنا باستسلامها، بدعوة صريحة منها؛ بثوران شبقها، بهيجان هذا الجسد الرهيب، وإلا حلت الكارثة**(+)**

أنفاسه المكبوتة تتردد بقوة وقد كاد فمه يلتصق بوجهها، عامل الخوف يصيّر تلك الأنفاس زفيرا متصاعدا فاضحا أحيانا، ثم يصيغها في شكل زفرات متقطعة أحيانا آخر، مما أفاق علياء من سباتها وقد أحست بثقل غير عادي يجثم خلفها فيلامس ظهرها ومؤخرتها بقوة كما لو أنه يحتضنها، تأكدت أن شيئا ما يحيط بمضجعها، بل ويقبض على عضلة ساقها في شدة تركت آثارها، نبست:" بشير". فغمغم هو ولم يفصح:" بل زايد". وبخفة تسللت يدها نحو الزر الكهربائي فأضاءت حنايا الغرفة، فراعها وجود شبح يقبع خلف السرير، اندهشت، استوت في جلستها، تصاعد الدم إلى رأسها، صيحة مدوية اهتزت لها أركان المنزل الغافي، أطلقتها من حلقها، الشبح هرع إلى الخارج، أسرعت في أثره، غادر الغرفة**(++)**

ــ خذ جزاءك أيها الولد العاق.

سقط لا يبدي حراكا، هل لفظ أنفاسه بعد أن هوت عليه خيزران العم بشير، الذي كان يترصده خارج الباب، ممتحنا تمسك زوجه بعرضها، وبمدى حرصها على شرفها، هل مات زايد؟

التهم العم بشير ما تبقى بيده من فاكهة التفاح، نظر إلى خيزرانه المنحنية الرأس مبتسما في اعتزاز بقوتها، وبخصال علياء.

(* *نشرت بالعدد"37" من مجلة آمال (يناير/ فبراير1977).

(+) (++) في هذين الفقرتين يوجد بعض التصرف بالقياس إلى ما ورد في النسخة الورقية.

(8) تكرر اسم " علياء" كزوجة، في قصتي:" عقود الاسترعاء" و" شبح خلف السرير" لتوظيف مقصود أو نتيجة سهو من الكاتب!

الأصابـــــع الخشنـــــة:(*)

"فهناك حظوظ ومواقع خُلقت لأصحابها،

ومن ثمة لا يجوز للأخرين التطفل عليها

ولو بالأحلام".

المؤلف

1

تهالك حاج مختار على المقعد الخشبي بصدر القاعة الواسعة، ذات النوافذ المتعددة التي فتحت جميعها لجلب الهواء النقي، وإلى جانبه شيوخ قد أعدوا لليوم عدته من أناقة في المظهر، ومبالغة في تعاطي المهابة والوقار، حانت منه التفاتة إلى الخلف، فتراءى له "سالم" يتوسط جمعا من أبناء حيّه البدوي، بعضهم بائس المظهر تطغو على سطح هندامه آيات المسكنة وسيماء الاتضاع الاجتمـــــــاعي، والبعض الأخر في زينة لم يألفها من قبل، قد أثارت إعجاب الشيوخ الجاثين في وقارهم المعهود بالصف الأمامي من القاعة.

الجانبان كلاهما يتهامس، العيون جميعها مشدودة في شغف إلى المنصة الموضعة أمام الجمع، تنتظر قدوم الوافدين على مقاعدها الوثيرة، بوزار قال: "إنه يودّ كعادته امتطاء سلم مناكبنا".

علال، تحرك في شيء من الاحتجاج لسيده، فخمرة الولاء والإخلاص سرعان ما يلعب مفعولهما بأم رأسه:" ستتسببون في خذلان سيدكم حين ينتصر كل حي لسيده!".

عيون سالم التهمت سحنة الرجل الهزيلة، وبريق شبيه بالشرر أخذ يتطاير من جنباتها، قال في عزم:" إنما جئنا لننتصر لأنفسنا يا علال".

زاوية القاعة ضجت بالضحك، بالسخرية، بالاستهانة، إن سالما الراعي يرغب في تقديم نفسه للترشح، وإلا بماذا يفسر كلامه؟ ترى كيف سيقابل الأمر من طرف جماعة الشيوخ من جلساء الصف الأمامي؟ تساؤلات مرت بأخلاد الجميع سيما علال الذي أضاف ضحكا:" لكأني بك تريدها يا سالم؟".بوزار اشتط فصاح في الجميع:" لم يكن سالم متطفلا على الأحداث يا جماعة".

عيون أبناء الحي رانت إليه في تعجب أشد، واستغراب أوضح، عابد انبرى للاعتراض ساخرا:" لولا أن جيبه يشكو من برودة كبرودة الثلج يا هذا". تعالت قهقهة الجميع دون وازع إلى أن نصح حراس القاعة بالهدوء، وخيل إلى عابد أن خير ما يمكن أن يحوز عليه المرء من مثل هذه اللقاءات هو الضحك، والتخفيف من الغيظ على الخاطر الكظيم، وواصل بوزار:" ليست الجيوب هي التأشيرة أيها السادة". فاعترض علال:" وماذا إذن؟ ". وقال سالم والأسف يشل من نبراته:" لم أكن أقصد نفسي يا جماعة". وأضاف محتجا لموقفه:" وعلى كل حال، فإنني في هذه المرة أفضل مني بكثير إبان المرات الماضية، وسترون".

لهجته الصادقة، الشديدة الوقع، أشعرت من معه بأنه يرغب عن الاسترسال في مثل هذه الأحاديث، فهو نوع من التلاعب بالألفاظ غالبا ما يخلف في القلوب أثرا سيئا، بل وحقدا غير مبرر، لكن علال بادره بقوله:" لا نرى لك فضلا في هذه المرة عن السابقات". سالم استدار بعينيه نحو وجه علال، وقال كما لو كان يؤكد حقيقة فاتت مدراك الرجل الذي يعده ذليلا:" أقصد أننا أكثر قابلية للاعتراض؛ أفهمت؟".

قالها سالم ووضع مرفقيه على منضدة الطاولة، ماسكا ظاهري شدقيه بيديه، وقد غاص خياله في ذكريات أحداث قاسية مريرة تقضت، ذكريات يحتويها شريط ذاكرته في أمان لا يلامسها فيه نسيان ولا تناس حتى، وكلما التفت الرجل الهزيل نحوها سارع الخطى للإفلات منها محاولا الهروب من عهودها القاتمة علها تتوارى وإلى الأبد، إلا أنها ظلت من تلك الأشياء التي تترسب في الأعماق كما لو كانت خطايا فادحة اقتُرفت في حياته.

أيامها استحال الأمل مجرد فكرة يتيمة تنتابه بين الحين والأخر، يرغب في لفظها من بين حناياه يأسا من تحقيقها فلا يستطيع، فيحتار في عجزه عن إدراك دوافع حركتها الداخلية التي أفقدته الاستقرار النفسي، **فلماذا لا نيأس نهائيا حين لا يتحقق أي مرغوب؟ حينما يتحول الأمل إلى وجع يلازمنا وفقط؟**

زملاء سالم في مهنة الرعي كثيرا ما تجاهلوا مقاصد كلامه، ظنا منهم أنها نمط جديد من المس الذي يعبر عن نفسه في شكل تلاعب أخيلة مراهقة بفكر مريض، يعيش على أحلام اليقظة.

2

أيامها، فتحت محجوبة حقيبتها القديمة؛ قدم عهد زواجها، طلاؤها انمحى، أخرجت منها قرطا حديديا صدئا أفقدته السنون صفة الانتماء إلى عالم المجوهرات، بله وإلى عالم الحدائد الناصعة، فلم يعد له انتساب إلى أي لون من الألوان، ألصقته بأذنها، ووضعت على رأسها شالا مهترئ الوسط أسود اللون، فأخفت به شعرها الأشعث المجعّد، وشاحها الرمادي الداكن تلفعت به، هو الآخر قدم عهد شرائه،

التفتت نحو زوجها سالم، الذي جلس القرفصاء منذ حين، بعد أن خلع نعليه اللتين تأكلت أطرافهما، قالت:" ألم تبلغك الدعوة لحضور حفل حاج مختار؟". ودون أن يكلف نفسه اكتراثا ظاهرا، تساءل في شيء من السخرية:" ختان ابنه سعيد أم زواج ابنته مريم؟؟". على شدقي فمها ارتسمت ابتسامة خفيفة، فأضفت على وجهها مسحة من العجب:" ألم يبلغك خبر فوزه في النيابة ثانية؟".

على وجهه بدا اهتمام أكثر من ذي قبل، تحرك في مكانه وكأنه أصيب بمغص مفاجئ، لقد فجعته السيدة زوجه بمقولتها تلك دون أن تدري، كان الأحرى بها لو سكتت؛ إنه في حاجة إلى الإسراع بالجواب، قال وقد اعتدل في جلسته أكثر:

ـــ وهل هو في حاجة إلى فوز قد يضاف

إلى نجاحاته الأخرى؟

ـــ لا أعتقد.

وبلسان من أظهر عجزة أمام أمر واقع، قالت محجوبة وقد تحولت بألبستها المهترئة تلك إلى مجرد مجسم اصطناعي، ملقى بمتحف خاص بعرض أزياء غابرة:" إنها عائلة محنكة في الجاه والثروة". واسترعت انتباهه هذه الكلمات النارية التي تلفظها محجوبة كعادتها في لهجة عنيدة، فقال متنهدا:" جاهها وثروتها لا ترغماننا على الاحتفاء بما يضاف لها من نجاحات".

وضحكت المرأة ضحكة طفولية عالية، أثبتت من خلال رد فعلها أن سالما يكن كراهية متناهية للعم مختار، ثم قالت متجاهلة كما لو أنها تود تهذيب الحديث:

ـــ خذ عمامتك الصفراء وانهض.
ـــ إنها عمامته.
ـــ لقد جاءك بها من البقاع المقدسة
ـــ البقاع المقدسة؟! أو قد زارها حقا؟!

أرسل الرجل زفرة قوية وقال كما لو أنه يحادث نفسه:

ـــ إن البقاع المقدسة والهدايا شيء؛ وحاج مختار

شيء أخر مناقض تماما، أتفهمين؟

ـــ وما الضير في لو أنني لا أفهم؟

ـــ لا شيء بالطبع، لكن ما دخلنا في فوزه؛

فلينجح إن شاء أو فليرسب.

محجوبة استغربت من زوجها هذا التعنت، هذه الأفكار التي رُكبت بذهنه تركيبا غريبا، فتساءلت عن الدواعي، وهي تردد على مسمعه كلمته التي اعتقدتْ أنها شذت عن قواعد التخاطب غير ما مرة:" ما دخلنا في فوزه؟!".وراحت تمطره بوابل من التعاليق:" إنه لغريب أمرك يا سالم، فمن الذي عساه أن يحتفل بهذا النجاح قبلنا؟ أهم منافسوه من الرعاة وصغار الحرفيين وأشياعهم؟ أهم مراهقو التخمين من الشباب القصير النظر؟ أهم حاسدوه؟ أم من يا ترى؟". وأجاب سالم:" فليعاده الجميع ونحن مع الجميع". وأضاف مشتطا:" فهل من الموضوعية في شيء أن نحكم على الجميع بالخطأ، وعلى تصرفات رجل واحد بالصواب والعصمة؟".

سالم أدرك سر هذه الخواطر التي تعصف بعقل محجوبة المسكينة، تلمس دوافع هذه الكلمات والتساؤلات التي لا تأبى إلا أن تصارحه بها في مواجهة عنيدة محتدة، وفي شيء من الاحتجاج لموقفها كما لو كان صوابا، فهي لا ترى في موقف سالم سوى بصمة عار لا تشرفها أمام بنات الحي؛ بل وأمام السيدة صفية زوج حاج مختار، وليتها لا تعلم، صفية المرأة التي انفتل حبل طباعها من خيوط الغلظة والدلال، وحيك نسيج خُلقها من عوامل الكبر والخشونة الفطرية والأبهة، إنها لا ترحم الجميع لو أن الخبر بلغها، ستلغي اتفاقية الرعي، سترطم نوافذ الرزق، ستجرد العائلة الفقيرة البائسة من كل ما يحوط بها من تأثيث منزلي هو عبارة عن فضلة، ومن أغطية صوفية أكل عليها الدهر ورقد، ستسحب بساط الرحمة من تحت أقدام الكل؛ وما هذا الكل بقادر على مجابهتها، هذا في أبسط الافتراضات، وأقرب الاحتمالات، بل لو أنها فقط طالبت بتسديد الديون التي يدعيها زوجها فما العمل؟ تلعثمت محجوبة في صوت متهدج وكأنه بداية بكاء:" فليقنا الله شر غضبتها". وصاح سالم:" ومن هي؟ لعلك تعنين فاسقة الحي صفية؟".

رشقته بنظرة حادة دون أن تجيب، هذه الخواطر حلقت في سماء سالم وزوجه، فتمدد ثانية على بساط من جلد العنز، واضعا راحة يده اليسرى على عينيه وكأنه يقتنص النوم، لا يرى في دعاوي زوجه التي تقبع إلى جانبه سوى ثرثرة، قد تعوّد على سماعها منذ الصغر، وترجمت محجوبة تصميمها بتحرك ملفت في جلستها، بعد أن أدركت جدية موقف زوجها، فصاحت بأعلى صوتها:" علي، علي". ومع سجاف الخيمة الأمامي دلف شاب قوي البنية، ميزه مطلع شاربين، يمسك بعصاه في يده، ولو طل من عينيه فوران أزمة نفسية حادة، لم يتفطن إليها أحد، إنه يكابدها وحيدا فيما يبدو، شأن أزمات شباب الحي.

انصرفت وإياه يريدان خيمة الأفراح المستدامة، حيث احتشدت جموع المهنئين والمظهرين ولاءهم فرسانا ومشاة، وفي أثناء الطريق دار بين الشاب ووالدته حوار أحست فيه انحيازه الكامل إلى وجهة نظر أبيه، قالت محجوبة:

ــ إنني لأخشى مغبة ما حدث يا علي؟

ـــ وما الذي حدث يا أماه؟

ـــ أبوك.

ـــ ما به؟

ـــ هو الوحيد الذي أصر على مقاطعة الحفل

يا علي.

ـــ وهل نحن ذاهبان لحضور زفاف مريم؟

قهقهت محجوبة قهقهة متعبة حتى لكأنها انتزعت نبراتها العالية الوهنة من

من حلقها انتزاعا، وهي تقول:" لكأني بك تخشى زواج مريم". وزم "علي" شفتيه في استحياء ويأس دون أن يغضب، وقد تلاعب بثنايا صدره تنهد مسموع، لقد عوّد نفسه على أن لا يغضب حينما يقذف بكلمة "شريفة" حتى ولو قالتها والدته من باب السخرية، كلما حاورته في موضوع مريم، وهو موضوع على التصاقه بفـؤاده يستحيل عليه مجرد الجهر بالانتساب إليه؛ ذلك أنه لا يقل استحالة عن تمكين والده سالم من عضوية البلدية، **فهناك حظوظ ومواقع خُلقت لأصحابها ومن ثمة لا يجوز للأخرين التطفل عليها ولو بالأحلام**، وإذن فلتبق مريم طيفا يسليه الشوق إليه من بعيد،

فمتعة الخيال ألذ بكثير من فراغ قلب المرء ومن سكون وجدانه، وستظل مريم باعثا على تفكيره، تسلية، هكذا أرادت لها الظروف أن تكون، ولو رام هو عكس ذلك، فللظروف كلمتها الأخيرة في حياة الناس، كان يسير إلى جانب والدته في صمت وهم مريم يمخر عباب فكره، فهي شعور يستقبله في صورة الهاجس الكاذب، الذي كثيرا ما يركب نفسه الكظيمة، فينبو به التخمين إلى حد الاعتقاد بأنها تحبه، أو تفكر فيه أحيانا على الأقل، إنه هاجس يتيم، حتى ولو شاع المثل**" بأن لكل هاجس حقيقته، التي تدعم تواجده على أرض الواقع".**

ولكن أي واقع؟ ورغم أن واقعهما لا تلاقي فيه، فإن "علي" يعتقد أنه في إمكان الإنسان أن يعيش لأنسان أخر حتى ولو لم يشعر به هذا الإنسان الأخر". في هذا الأمر كله فكر، وقال متجاهلا نوازع صدره:

ـــ وعلام نحن ذاهبان إذن يا أمي؟

ـــ لحضور حفل عمك حاج مختار بمناسبة

نجاحه في الانتخابات البلدية.

ـــ إن له في كل يوم نجاحا فهل له في كل ليلة احتفال؟

وتوقفت محجوبة عن المسير وهي ترشق ابنها بنظرات عتاب حادة:

ــ ما أشبهك بأبيك تجاه هذه العائلة التي لولاها لــ...

وقاطعها:

ــ لولاها لماذا يا أماه؟

ــ لا شيء.

دون أن تنبس بكلمة واصلت خطوها المثقل إلى جانب "علي"، وما أن بلغا مضارب حاج مختار حتى انضم علي إلى الجموع الغفيرة المتزاحمة، بينما دلفت والدته إلى خيمة مضروبة بالزاوية الأخرى خصيصا لطهو الطعام، ورياح الظنون والتوقعات تعصف بشراع قلبها الحزين.

3

في حركة عجيبة ضرب سالم على منضدة الطاولة بقبضة يده، وهو يردد:

ــ سوف لن أَضيع هذه الفرصة.

أصحابه نظر بعضهم إلى بعض في انشداه وغرابة، بينما لمظ علال شفتيه بلسانه وهو ينقر على زاوية الطاولة بمقدمة وسطاه نقرا خفيفا، في هذه الأثناء عاود سالم الارتماء على أجواء الماضي العقيم، لقد انتهى الحفل، تفرقت جموع المدعوين، أحيط حاج مختار بتغيب سالم عن قصد، فانطلق الرجل المكعب الشكل تجاه خيمة الراعي الشبيهة بالكوخ؛ يتقدمه بطنه المنتفخ، تراءت له الخيمة وهي عبارة عن خليط من منتوج شعر العناز، ومنتوج الغابة، وبعض الحجارة المرصوفة بمدخلها في عناية، كان حاج مختار نتيجة شدة غضبه لا يطأ الأرض إلا وطئا خفيفا، وكأنه يتزحلق على كثب من ثلج، وقابل سالما بقوله:

ــ ما منعك من أن تشاركنا حفلنا؟

ــ المرض يا حاج؛ صداع مزمن.

ــ بل هو الكفر بأنعامي يا سالم

ــ ماذا؟ عبدك سالم يكفر بأنعامك؟ هذا شيء

لا يصدق.

ــ إن لي معك لشأنا، لقد خدعوك.

شدّد حاج مختار على مخارج الحروف الأخيرة، فأعطاها بذلك منتهى صبغتها التهديدية، وفي غضب متناه راح يبحلق في جنبات الكوخ بعينيه، كوخ

الاستقبال، وكأنما يهيم بحرقه أو بتقويضه، ثم عاد من حيث أتى مخلفا سالما كالمعتوه لا يدرك من الأمر شيئا، وما أن انفصل عنه ببضعة أمتار، حتى صاح بأعلى صوته:

ــ علي، علي، أخرج أنت الآخر وإلاّ...

الشاب هرع ممتثلا لأوامر سيده، التي ستكون بدون شك حاسمة وقاسية:

ــ ابلغ أباك أنا خصمنا من حقه ستة خراف

تسديدا للديون السابقة.

الخبر المفجع كان بمثابة قذيفة نارية أصابت جنبات المنزل؛ خيمته وكوخه معا، فبددت معنويات قاطنيه، اهتزت لهولها أرجاؤه المهترئة، وآمن الجميع بالأمر الواقع، بل قالت محجوبة:" إن كان هذا يرضيهم فهو يرضينا جميعا".

سالم رماها بسهام نظرات غاضبة دون أن ينبس، راح يتأمل أصابع يده وكأنها شيء جديد أضيف إلى جسده في هذا الوقت بالذات، ما العمل؟ علّق في نفسه، لا شيء يجدي إلا الطاعة والامتثال. إن حاج مختار لا يَحسُن إلا حين يُخطئ كفصل الشتاء، وإحسانه كظل عابر لا تكاد تتمدد تحته طلبا للراحة حتى ينصرف عنك متواريا.

لعن سالم ضعف نفسه وخنوعها، واتكالها، مبددا غشاوة القداسة التي تلفعت بها عيناه تجاه حاج مختار، تساءل في قرارة نفسه:" أليس في هذه التجاوزات دوس صريح لهذه القداسة؟ اعتدل في وقفته وكأنه يهم بتأدية تحية عسكرية مجانية، انطلق مسرعا في طريقه إليه، إلى الماسك بزمام أمره، كانت أسنانه في أثناء الطريق تقرع غضبا نتيجة هذه المبالغة في الازدراء، وهذا التجاوز في الاستهانة، وفي نوع من التحدي غير المألوف وقف أمامه، تحد لم يسبق له مثيل في حياتهما المشتركة المختلة، قال وهو يقلب شفتيه في استياء بالغ:" بأية ذريعة تسلبني حقوقي؟ فالديون القديمة كلها مسددة".

حاج مختار لف قامة سالم الراعي بنظرة فاحصة، وهو يعقص شاربيه، كما لو أن كلمات الرجل المتضع قد استعصت عن فهمه وإدراكه، قال وهو يشوح بذراعه، وقد أخذت طلائع انقباض تتسرب إلى وجهه في غزو مكشوف:

ــ الديون يجب أن تُسدد مهما كان الأمر.

ـــ ولكن ليست بيننا ديون.

ـــ بل بقيت؛ وهي كثيرة.

ـــ تسلبني حقوقي بقوة مالك وجاهك والثقة التي

مُنحت لك مرتين.

قالها وهو يهم بالانصراف، لكن حاج مختار استوقفه بقوله الساخر:

ـــ فسّرْ الأمر بما شئت.

وبصوت خال من أي وقار صاح سالم:

ـــ ولكنها ثقتنا أيضا.

عقد حاج مختار حاجبيه في غرابة مصطنعة، وكأنه يستوضح سالما:

ـــ ثقتكم؟؟؟ !!! ومن أنتم؟؟ !!

وسرعان ما وارى استغراب الرجل موجة من الانفعال الحقيقي، عبرت عنه لمته الغثة من خلال ارتجاف قوي لم يعهد فيها من قبل، وشد على خناق سالم شدة محكمة، وراح يهز صدره هزا وهو يقول في لهجة خشنة، يريد أن يضفي عليها نوعا من الشخير ما استطاع لتكون مخيفة أكثر:" أجئت تسترزق أم تستنطق؟". وجاء جواب الراعي في برودة الثلج، ودون تكلف أي انفعال، وهو يتحدث بصعوبة لأنه مختنق من قبضة حاج مختار: ولكنها حقوقي هضمت ظلما وجورا". فقال وهو لايزال يشد على خناقه:" لنفرض هذا فماذا عساك تفعل؟".

سكت سالم منكسا، منهزما في وغى الجدل، إن سؤالا من هذا القبيل ليعد امتحانا لقدراته على التصدي، فهو في الواقع جس نبض لكمية الشجاعة التي يتوفر عليها، ولكنه لا يفكر في الحسم من خلال أسلوب ذي طابع عنفي، وإلا لكانت يمناه هذه الماسكة بعصا العرعار الخشنة الغليظة، قد قالت كلمتها في النزاع بمجرد قبلة خاطفة توقعها على أم رأس الرجل الشره.

فك حاج مختار كماش يديه عن خناق سالم، وراح هذا يصلح من شاشه الذي تبعثر، وقال مستغلا سكوته، مؤكدا له أن لا شيئا يجدي:" اطمئن فكل جهة تطمع أن في استطاعتها إنصافك مني إلا وغزاها نفوذي". تهكم مزر، حرك عامل التباري في نفس سالم، فجعله يقول:" سنرى". فصاح الطاغية في شطط؛ وبكل قواه الصوتية:" وماذا أرى؟ لا أراك إلا طريدا تتلكأ في مضارب البادية". فقال سالم وهو يمسح على عنقه وكأنه يتفقد آثار القبضة:" الوقت كفيل بإنصافي". فالتفت حاج مختار وكان قد خطى مغادرا:" إذن حمّل الوقت هذه المسؤولية؛ ودعه يتصرف". قالها مقهقها في سخرية، لكن حدسه ما لبث أن استدار في دوامة اِئتلف التفكير فيها مليا، دوامة يخشاها، إنه يدرك ما قصده الراعي المتمرد، إنه ليضع يده على صدره خشية مما لمح إليه سالم، أليس من واجبه أن يربح وده؟ وأسرع إلى القول كمن ينفي حقيقة ثابتة:" لقد خدعك ذوو الوعود الفردوسية الزائفة". وقال سالم متجاهلا:

ـــ ومن هؤلاء؟

ـــ فئة تناصب ذوي المال والجاه عداءها.

ـــ وكيف تحصنت هذه الفئة ضد عدوى نفوذك

الواسع الذي غزا جميع الجهات ؟

وبهت حاج مختار، فتوقف عن المزيد، إن سالما قد أدرك الكثير في فنون الجدل، والحوار، لقد أصبح يوقع أنداد حاج مختار ـ وما أدراك ـ في تناقض صريح بيّن، لقد جاء على أخر ما احتوته جعبته، بل وماذا عساه أن يضيف لذلك؟

انصرف وهو يفكر في ما دار بينهما من حديث، قبل حين قال إن نفوذه عمّ الجميع، كأنه الوباء الفتاك، وبعده بقليل اعترف بوجود فئة بل ربما فئات تناصب ذوي الجاه والمال العداء؛ بيد أن الأدهى من ذلك كله، هو جسارة سالم الراعي هذه المرة، طالب بحقوقه كاملة غير منقوصة! لقد شذ عن العادة، انحرف عن القاعدة المتوارثة، انساق وراء خلق ذاتية عاجية ينقصها عنصر جوهري في تكوين كل ذاتية صلبة: ألا هو المال، المال وكفى به هدفا في الحياة، ملجأ للأحياء، إن سالما لمخطئ وأي خطأ؛ الويل له، أما سالم فقد عاد إلى منزله الكوخي وهو لا يطيق ما لحق به من هزيمة، ولكن ما العمل؟

4

أحداث السنوات الثلاث المتقضية استرجعها، وهو مستلق على متكأ الطاولة يحذوه صحابه، أحداث كافية لأن تقيد معصمه عن التصفيق قبولا بترشح حاج مختار مجددا، وكان ذلك ما يشغل الحاج أيضا، إنه ليخشى سالما ولا أحد غير سالم، هذا الجسر الطبيعي الذي أصبح مروره معه شيئا حتميا في نزوعه إلى السيادة، كيف وأنى ومتى ابتلي به؟

لكن كيف استحال سالم الراعي وأمثاله جهة لها وزنها في المصادقة على ترشح الأكابر؟ مهما يكن من أمر لقد واصل مساعيه لدى سالم لكي ينسيه ما حدث، غير أن قلبه لم يطمئن كامل اطمئنان لحسن نية أبي علي، مليا فكر في هذا الأمر ثم غادر مقعده الأمامي في طريقه إلى الزاوية الخلفية التي يوجد بها سالم وأبناء الحي، وما أن وصل حتى طأطأ رأسه هامسا:" إن كل حي يتطلع إلى تحقيق فوز سيده، إن رسوبي يعني إخفاق الحي برمته". فقال علال وكان قد وقف تأدبا لحاج مختار:" إن البديهيات لا يمكن تجديد التأكيد عليها يا حاج". ونظر إليه سالم في استياء، بينما حلقت باقي العيون في الزاوية احتجاجا على موقف علال المتخاذل، وأَضاف حاج مختار وقد شكر علالا:" فالقضية رهان بين أعيان الأحياء ليس إلا، ليس إلا". عندها نبر سالم:" مادامت المسألة كذلك ففيم حاجتكم لنا معشر الأعيان؟". فقال حاج مختار على الفور:" إنما أنا أقصد غيرك".

قالها وانصرف يجر أذياله نحو مقعده، يتقدمه بطنه المنتفخ، وزم علال شفتيه في قرف، ثم بادر موجها كلامه إلى سالم، الذي ظل يبتسم في وجه جلاسه: "من حسن حظ الأخرين ألا نوحد رأينا". فقال عابد:" الاتحاد لا يتحقق بالشكل الذي تطرحه". وأبرقت عيون الصحاب، إن عابدا لا يتكلم كثيرا لكنه إن تكلم يقتنص في كلامه القليل فصل الخطاب، وحاول بوزار أن يتكلم لكن سالما صاح من الزاوية الأخرى:" هي ذي العملية قد شُرع فيها". كان يشحذ كنانة دعاويه بين الحين والأخر، إن ترشح حاج مختار دونه شوك القتاد، ولو أرغم نفسه على التحدث في هذه المناسبات أحاديث لينة وعسلية تقطر زيفا ونفاقا، لا تستهوي إلا قلوبا لم يسبق لها أن ارتوت من ظلمه وتعسفه، أحاديث كثيرا ما وارى بها حقيقته المبنية على حب التملك، والرغبة في فرض النفوذ، أيضا سيكثر هذه الأيام من ترديد الأذكار حتى لكـأنه في خلوة يتعبد، لكنها أوراق أفقدتها المعاودة تأثيرها، وأزال التكرار مفعول تخديرها.

استدار حاج مختار برأسه نحو الجماعة الخلفية، وكأنه يشير عليهم بالاستعداد لخوض المعركة الساخنة، والمصيرية بالنسبة إليه، أعاد رأسه إلى الأمام يتحين الفرصة، في هذه الأثناء قال علال كأنما يوجه أخر كلمة في حوزته إلى سالم:" لا أظن أن اعتراضك على ترشحه قد يُسلّم به من طرف اللجنة المشرفة يا سالم". فضحك وقال:" وهل غزاها نفوذه هي أيضا؟ ". رد سالم على علال بكلمته تلك، وهو يتطلع برأسه إلى المنصة الأمامية، ففاجأه صوت غريمه مزمجرا:" حاج مختار يطلب إعادة ترشح نفسه نائبا في البلدية". كان ذلك كفيلا بانفجار كوامن السخط المترسبة في أعماق سالم، همّ بالتحدث، شابه بعض التردد، لكنه أخيرا رفع أصبعه ثم وقف قائلا:"

" ممثلو الحي "**خمسة / سبعة**"، يعترضون على ترشح حاج مختار". وامتدت الأصابع الخشنة من الزوايا الخلفية في تأييد جمعي لتدخل سالم، الذي ظل واقفا منتظرا قرار اللجنة، وقد راح أعضاؤها يتشاورون همسا في ما بينهم، أما علال فلم يستقر أصبعه على حال من الأحوال، فتارة يرفعه مع الرافعين أصابعهم، وطورا يثنيه على راحته، ثم رفع رجل المنصة عينيه قائلا: اللجنة آسفة".

(*) نشرت بالعدد"48" من مجلة آمال/ 1979.

من القصص الرمزي

خـلــف الأشـعــة:

1 ـــ نبأ عاجل من مدينة التجار:

قبيل اعتذار المذيعة عن رداءة الصورة، ارتجاج الصوت، شيخ الأُزدية انبرى يحادث أشراف القبيلة من وراء الميكروفون، يستنطق بيبلوجرافيا العطاء في حياتها، دورها في إبادة الصعاليك، ظاهر شريف من النجاشي أثناء زيارته الأخيرة إلى "نجران". تدشين قاعدة حضرموت.

يفتخر كان:

ـ لنا العزة القعساء.

حكيم القبيلة أثنى على فصاحته.

الشاعر غمغم.

قائد الحرس أخذ يصلح ذؤابة عقاله وقد تدلت إلى كتفه.

فبادرت المذيعة إلى الاعتذار عن فساد الصورة ورطانة الصوت لأسباب فنية؛ فنية بحتة.

2 ـ قراءات في مخطوط مصادر:

أقلتُ راويتي؛ فنسب أشعاري إلى نفسه.

حاولتُ تمزيق ذاكرته، فتلاعبت ألسنة اللهب

بآثار الصمغ المتبقية بحوزتي.

"بني أمي"

أقحمها في عجز البيت؛ شاذة كانت

فأصبحت في سياق مألوف

قال الراوي...

شيخ القبيلة رشقه بكيس من الدولارات

عملات نجاشية.

الحكيم أثنى على تحكمه في مقتضى الحال.

قيل:" راوية شاعر... بل شاعر راوية"

3 ـــ من وصايا الشنفرى:

في نظراته المصلوبة الجائعة، تتهاوى أفراح الوجود، تُقرع أجراس الجنائز، تموت ابتسامات الأطفال متتالية، تقشعر أبدان الأساورة، تتقلص صموغ الشبق في مواخير الجزيرة المفتوحة، يضرب السبي عن ممارسة الحب في أجنحة الظلام، يتوقف الوجد الخرافي، تجف أذهان الدراويش، تتصلب شفاه الساحر الأعظم على خد قهرمانة "بابل"، تصادَر موسوعات الفلسفات العرجاء دون أن تغضب أثينا.

شيوخ بني أزد تستعد لإغماد سيوفها اليمنية في صدر الشنفرى؛ المشدود إلى قضبان القصر، مغتال القومية، فيغترب ملوحا بجنسية الغاب، لا يصطحب سيفا يمنيا كما يُشاع، لكن في جيب ردائه المسروق خرقة مكتوبة، افتقدها الراوي لأنه يجهل النقوش الصدئة على خروق المنبوذين؛ العصاة.

شرائع بني أزد ـ يا سادة ـ لا تقر عقوبة الصلب المستوردة نزولا عند رغبة أحد رحالاتها سبق له أن زار موقعة المنبوذين بضواحي " اسبرتا"، ترك في مذكراته غير المعتمدة أن سيف سبارتاكوس سُلم لابنه خلسة، ولم يُدفن إلى جانبه على قضبان المدينة كما يُذاع.

علقت المذيعة؛ ولكن دون أن تبتسم.

لحظة انسجام: (*)

" إن الحاضر ليس بزمانه ولكن بقـــدر صلته بنا، فقد يكون الماضي حاضرا إذا فقـــــدنا الصلة بالحاضر، وقد يصير الحاضر مستقبلا إذا ما أعدمنا الشعور باستشرافه".

— 1 —

في ساعة مبكرة من الليل، على غير عادة منّي، ولجتُ المنزل، منصرفة تلقاء دولاب الملابس، محفظتي اليدوية، الجلدية الناعمة قذفتُ بها إلى أعلى السرير، نظرة عابرة ألقيتُها على محياي من خلال المرآة؛ نظرة حيرى، أعرضتُ عنه، سأمتُ النظر إليه، أزياء الفسحة الأحادية أخذتُ انضوها عن جسدي البضّ، الفاتن، أطرافي المثيرة أظهرت تجاوبا نورانيا مع أشعة ذهبية منبعثة من مصباح كهربائي معلّق على زاوية الغرفة الساكنة، إنني أشعر وكأن هذه الأطراف قد فقدت قدرتها على الإغراء، رغم أنها في عنفوانه.

ملابسي الفاخرة أزحتُها جانبا على عجل وبغير نظام، خداي كشطتُ عنهما فقاقيع الرتوش والمساحق فاستعادا توهجهما الطبيعي الأخّاذ، تماما كاسترجاع نفسي حقيقة أمرها في هذه اللحظة.

إنني هكذا، كلما تناصف شهر يونيو من كل سنة أثوب إلى نفسي، أحادثها، أكوّن معها دردشة مسموعة حول؟، فتصبح في لحظة انسجام مع الماضي؛ في حالة تكامل مع العدم، في وضعية تناسق مع لا شيء، في عالم كله أشياء.

إن يومي هذا ــ أيها السادة ــ أعظم من عيد ميلادي، وتاريخ زيجتي، وقد يكون نقيضا ليوم وفاتي، إذا كنتُ حقا لم أمت بعد.

الزر الكهربائي بضغطة من إبهامي، صيّر الغرفة ظلاما قاتما، شخصتُ إلى الظلام، أحدد سمك طلائه السوداوي، مستلقية على السرير، سرير العمليـــــة الجراحية التي أجريها بمفردي ذاتيا: ظلام، وحدة، سكون، رتابة، وشوشة داخلية،

تُسمع إلى جانب النبض المتزن، في صدري، عوامل محببة إلى نفسي في مثل هذا الوقت بالذات، إنها قوام معبد أتنسك فيه، أؤدي شعائري الروحية الخالصة، كلما كان ميقاتي السنوي.

سريري ــ يا سادة ـ يستحيل معه مُقاما صالحا لممارسة هذه الرياضة الشبيهة بقواعد "اليوغا"، خليط هي من التشنجات الجسدية والروحية معا.

وجداني أبوابه تتفتح في طواعية أمام خواطر وافدة من أعماق سنوات الذكرى، هاته التي تقف في صلابة حيال عواصف حياة باريسية، أسخر منها لأنها تنثني بكل ثقلها عاجزة عن الحؤول دون لقائي بأطياف العدم، الجاثمة باستمرار على تخوم نفسي المضطربة في حقيقتها؛ الهادئة في ظاهرها.

فأي العهدين ـ يا سادة ـ أجدر بأن تعيشه سيدة على هذا القدر العظيم من الجمال الروحي، والصفاء النفسي المشرق، والتكامل المعماري الفاتن؟ أيهما الشباب وأيهما الشيخوخة؟ أيهما الربيع المتفتحة أزاهيره؟ وأيهما الشتاء الذاوية أوراقه؟

لقد علمتُ قبل الاستماع إلى جوابكم، **أن الحاضر ليس بزمانه، ولكن بقدر صلته بنا، فقد يكون الماضي حاضرا إذا فقدنا الصلة بالحاضر، وقد يصير الحاضر مستقبلا إذا ما أعدمنا شعور التوثب نحوه.**

أمّا أنا فلكلا الطورين في نفسي مقدار.

— 2 —

حياة ريفية معقدة وساذجة في آن واحد، شكلت فيها أيام الفراغ بواعث على انطلاق أجنحة الأخيلة عبر مراتع الأحلام المحظورة، كان صادقا وشديد الميل، بالغ التأثر، مشاهد ما فتئت عالقة بذهني لا تريم، شأن اللحظات السعيدة المؤثرة، التي نذرتُ نفسي للاحتفاظ بها ما حييت.

قصائد غر طوال، أجل قصائد خلّدت مآثر جمالي، روعة شبابي، أصبحت حقائق ميتة بعد الرحيل، كنقوش "تدمر" ومعالم " غرناطة"، فاقدة صلتها بالواقع الذي جسّدتْه، فتغير تغيرا ملحوظا.

محاولات التسلل نحو صدري حسبتُها تطاولا على حماي، وأي حمى؟، تجاوزا لمراسم العلاقة الطبيعية ـ أو المصطنعة ــ التي يمكن أن تُقام بين شخصين لكليهما محيطه النفسي والاجتماعي الخاص، تصرّف كان ناجما عن نظرة جزئية، ملونة بخيلاء قيل إنها تستبد بفتيات العقد الثاني.

رسله؛ أسقطت عن نفسها صفة الرسل؛ جماعيا وقعت باسم قاض ما؛ وفي غيابه، شهادة وفاة مشتركة، بدل عقد الزواج المرتقب، واقع المرأة عندنا ـ يا سادة ـ لم يتطور بشكل يجعل الحب في غنى عن قاعدة الرسل، فهم الأكسجين الذي يتنفسه، وهم الدخان الذي يسمم منخريه فيقتله.

أسائله من بعيد، وقد مضى ما مضى، لماذا أحبني منذ صغري؟ ألم يعلم أن حبه قد تجاوز دائرته الترابية؟ أيجهل حدوده الجغرافية؟ أم تعمّد الغزو فلقي مصير الغزاة؟

أحقا كان حبه إليّ تمردا على كثير من القواعد المجتمعية الجائرة؟ لماذا؟! ألم يحب أخرون قبله أخريات قبلي؟ لقد أحب هؤلاء لكن بفارق واحد، هو أن حبهم لم يتجاوز دائرته الطبيعية، أو المصطنعة، بذوره نمت في نطاق حقل محدد بوشائج العرق، والتكافؤ الاجتماعي.

في خلقة طفلة غريرة توسّم طلعة امرأة مثالية:" هيلانة"، " زينوبيا"، امرأة متكاملة شكلا ومحتوى كقصيدة عصماء صاغها الوجود، كأني بهذا الاحتمال ذهب به إلى أن ارتأى لغة الشعر وحدها خليقة بمقام فتاة معتزة بجمالها، فتعالت شاخصة نحو الأفق البعيد؛ نحو المستحيل؛ نحو اللاموجود، إلى حياة صاخبة سرعان ما قطعت الطريق منذ الوهلة الأولى أمام أية عودة إلى النفس، إلا إذا كان الميقاتي السنوي من كل عام، حيث يحبّب إليّ الاحتفاء بذكرى وفاة المغفور له(؟).

كدأب أية فتاة ريفية مهاجرة تقتحم أقيانوس المحيط الباريسي، أو اللندني المتناقضين، الصاخبين، محمولة على أجنحة الفرحة نحو الهاوية، في رحلة سندبادية، ليست في جميع الحالات سوى اعتزال لإمارة القلوب، استبدال لموقع الصدارة برغبة مهتزة وغير واثقة في المواكبة والتأقلم، بداية من الصفر، انحدار عن القمة بعد بلوغها.

— 3 —

انتشلني من هذه الدوامة النفسية صوت جارتي، وقد جاءني من خارج المنزل: " هل أنت هنا؟". قلت:" نعم إنني هنا؟ قالت: " سأعود ". وانصرفتْ، فاستأنفتُ تشنجي، وتحسري، إنني أتكتم بين أضلاعي سرا يعروني خوف غريب كلما حاولتُ أن أجابهكم به، إنني الآن وقد انتصبتُ على مرقب روحي شفاف صرف، لأتقصى أطوارا مررتُ بها، أو مرّت بي، إذ أصغتُ وقائعي في قالب اعترافات صريحة بدافع الذكريات التي تتصلب في ثنايا الذاكرة، فتأخذ مفعول التنويم المغناطيسي المستنطِق، أجد دونما عناء لتجاهلي مبررا ومدعاة، فليس هناك من ضير في الاعتراف ــ يا سادة ــ بأنني إنسانة قاست في شبابها الأول، من تخلف في الوجدان!

إن التخلف لدى الإنسان ليس ذهنيا فقط، إنه وجداني أيضا، إلا أنه شتان بين التخلفين، فبقدر ما يستقبل المرء تكامله الذهني برضا وطمأنينة بال، بقدر ما يبعث النماء الوجداني المتخلف في نفس صاحبه ألما وحسرة، سيما إذا كان أضاع خلفية ربيعية من حياته بدون سابق إصرار.

فلسفته في الحياة أخذتُها عليه أثناء عهد تخلفي الوجداني، وأيضا كنتُ مخطئة، إنها عزاء في هذا الطور من التكامل النفسي، صدقوني ــ يا سادة ــ أن الحب

الحقيقي ـ كما يعتقد هو ـ ليس تواجدا مكانيا بين اثنين، ولكنه حضور روحاني مستمر لكليهما في خلد الأخر. وطالما أن ذلك هو اعتقاده، أفتراه اعتزل أمري؟ أم ما فتئ صوفيا لا صديق له إلا نجوى الليل؟

— 4 —

أفصحوا يا سادة عما تتهامسون به، أحقا أن عصافير الريف المهاجرة هروبا من حرارة تموز قد عادت إلى أوكارها مع آذار لتبتني عششا على ضفاف النهر الوديع؟

الأنهار الناضب سيلانها صاغتها الغدران سواقي فياضة يسمع خريرها على نحو زالت معه مترسبات الطحالب؟

أفانين الخروب المهيضة الأوراق، أخذت تخضرّ من جديد بعد موسم الحصاد المغولي؟ وتمنح الأطفال ظلالا وارفة في فصل الصيف.

قلتم أيضا: إن السحب التي خلّفتُها أثناء الرحلة هامدة، شرعت في الركض نحو الغرب، فبدت زرقة السماء وهي تعانق أديم الأرض الذي زُركشت نباتاته بفعل ديمومة الشمس؟

أحقا أن شحارير الكهف الجريح، التمست طريقها نحو مسارب الوادي؟ وأن حشرات الجناح المهجور قد عُثر عليها مواتا؟

والعم صالح لم يعد راعيا لقطعان القرية بعد أن أضرم النار في قش كوخه المنتصب بالقرب من حي "الحجيج"؟؛ قيل إنه عاود الزواج، أنكر امرأته الأولى؟ انبعث في أجداث قلبه الوهن حبٌّ حيٌّ سويٌّ، وماتت التناهد العاصفة بقلوب الحيارى في أعماقهم، وحضر الحفل شيخ القرية الذي صار بدوره عازبا؟؟؟ أحقا؟ أحقا؟ أحقا كل هذا حدث بعد رحيلنا؟

انفتح الزر الكهربائي فأضاء حنايا الغرفة، فعمدتُ إلى ترتيب مراسم زينتي استعدادا للخروج.....

.....

(*) نشرت هذه القصة بالعدد"4290" من جريدة الجمهورية الصادرة بوهران/1979، وبجريدة الشعب في عددها "5408" المؤرخ في 21 مارس1981، وعقّب على نشرها الناقد المعروف الـدكتور عمر بن قينة بدراسة هامة، وردت في نفس الجريدة (عدد5429 في 14 أفريل1981). كما نُشرت هذ القصة أيضا بمجلة "آمال" لسان حال وزارة الثقافة، مزيتة برسم معبر.

من القصص الرمزي

حسناء على الشياع: (*)

ليست القضية أن تبقى سجينا؛

ولكن القضية في عدم استسلامك.

الشاعر التركي

"ناظم حكمت"

نهاية كان يتوقعها منذ أن فقدت " سامية" اقتناعها بموضوعية مأثوراته التي ما انفك يرددها انّى ما حلّ وارتحل، جدد من خلالها نظرته للحياة، منهجيته فيها، علاقاته بالأحياء" **اظعن عن الناس يذعنوا لك**".

" سامية" لا تستسيغ هذا المنطق، تستهجن مدلولاته، لذلك تطاول بها المكوث في السجن، القضبان أبرت سحنتها، دون أن يعلم السوقة أن حبها لهم كان وحده علة إدانتها، وهو في اعتقاد العم (ــ) إقرار بانهزامه في حلبة السباق لنيل قلبها العذري.

المثير لحفيظته أنها تبدو متأكدة من دنو آجال إطلاق سراحها، دون مبالاة بما يشترطه هو لهذا الإفراج، كما لو كانت تسند ظهرها إلى أحد أخر قد يخشاه، إنه مجرد افتراض ستتضح قسمات صورته مع مر الأيام.

قلبه وعقله معا اشتركا بكل قواهما في صياغة حبه لــ"سامية"، في تربية جنين حلمه بالاستيلاء المبكر عليها، سهرا على نموه، وظفا طاقتيهما للحفاظ عليه، إلا أن تصرفاتها تحول دون اعتقاده بتوازن قلبيهما في الإخلاص لهذا الحب، في تكافؤهما في الوفاء له، ولذلك ظلت لما تتجاوز دائرة الشك في نظره؛ وإلا ما سر عطفها على الفتات البشري الآخر؟ وما تفسير رغبة هذا الفتات البشري في الحصول على أقل من كلمة منها؟ على نظرة حانية من لدنها؟

لا شك أنها تفطنت إلى غلوه في التعلق بها، فارتقت ركام شخصيته المجبال على التذلل والانقياد تدوسها بأقدام كبريائها وتعاليها.

أيامه معها حافلة ومتخمة بالآثام؛ بالجرائم أيضا، أحبها منذ أن وطئت يداه أديم الأرض، وقبل أن تلامسا نهديها اللذين يعتقد بقدسيتهما، اقتطفتا حقولا من جماجم الطامعين، المترددين، لقاؤهما الأول لغز يعسر فك رموزه، الصدفة أُقرب تأويل إليه، مكثا عاشقين في نظر العامة، وفي الواقع محب غير محبوب.

اشتد غليان هذه الخواطر برأسه، مقعده الوثير غادره مهرولا صوب النافذة، أخذ يحدد النظر إلى الأفق المغطّى بطبقات قانية في حمرة الشفق، الجو مضطرب، البهو الهادي عادة؛ أخذت الريح تقيم بزواياه أسسا لكثبان رملية قد يصعب اجتيازها، قضبان الشبابيك اللجينية اللون فقدت قدراتها على عكس تيار العاصفة الهوجاء التي استحال أمامها المبنى الشامخ مجرد علبة من ورق مقوّى.

أستار النوافذ ذات النوع الرفيع تخفق حواشيها خفقانا شديدا، كما لو أنها سجاف خيم ابتنيت على قارعة صحراء عارية؛ البلاط الأرضي البديع يستقبل غبار الأتربة والقذائف الرملية رغم أن الوصيد مقفل وفي إحكام! العاصفة يتزايد أمرها، يتعاظم خطرها، يتضاعف هديرها، أرجاء المحيط كلها تعكس حدتها في دوي شبيه بزئير الأُسود المبهم المخيف، اصطنع ابتسامة مهزوزة يستدل منها على تبرمه من يومه هذا، علّق في تنهد مسموع:" يا لها من عاصفة شديدة ".

امتعض وهو يقدّر الظرف العصيب الذي يمر به، عاد إلى كرسيه؛ عرشه، سمر نظره إلى مجلة ملقاة على زاوية المكتب، تناولها، راح يتصفح أوراقها مستديما نظره إلى صور الأجساد العارية المثيرة المغرية التي تزيّن صفحات المجلة، مناظر اِئتلفها على الأوراق وعلى أرضية الواقع أيضا، أوه، لو يعود المحيط إلى مجراه الطبيعي الرتيب، فتتوقف قرقعة العاصفة، يهدأ زفيرها المتعالي الغاضب، إذن، إذن، لكانت هذه الليلة أيضا أندلسية ولكن؟

في احتراس شديد فتح الباب، الحارس امتثل، لمظ شفتيه بلسانه، وكأنه يواري ابتسامة متطفلة، قال في لهجة آمرة:

ــ أبلغ تابعك باستدعاء سامية حالا.

ــ حاضر سيدي.

دلف إلى مكتبه يصرّ الغيض في نفسه، تطلّع ثانية إلى النافذة يراقب أحوال الطقس، الجو لا يزال قاتما ملبّدا بسحب دكناء، تماما على شاكلة فقاقيع الحزن التي ترابط على تخوم نفسه الكظيمة، الرياح تواصل صفيرها في غير فتور، عاود فتح الباب في رفق، رشق الحارس بنظرة عتاب انطفأ لهيبها مع انبساط مصطنع ساد أساريره المنقبضة بالسليقة، تقدم منه، ربت على كتفه بيده وكأنه يبتهل إليه أن يشاركه بعض آلامه وإرهاقه، قال:

ـــ مع مر الأيام أراك تثبت إخلاصك باستمرار.

ـــ أرجو أن أكون عند حسن ظنكم.

جرس الطابق السفلي يُقرع بعنف؛ قرعا مدويا مفزعا شبيها بصراخ ثكلى أُذن لها بالنحيب، حتى لكأنه ينذر بمقدم غارة جوية مباغتة، ضابط حرس المبنى المتواجد بنهاية الممر الرخامي المفضي إلى منحدر الدرج يهرع في خطوات حثيثة نحوه، نحو معاليه، أدخله المكتب أو صد الباب بإحكام دائما، قال في لهجة يخاف معها جواب الحارس: " إلى أية نتيجة بلغت تقصياتكم؟".

ضابط الحرس تحرك في مكانه وهو متردد، إنه يخشى الصراحة، ويخاف كتمان الأمر؛ فكلاهما تؤدي مغبته إلى غضب "معالي (ـ) وهو يخاف هذا الغضب:" معلوماتنا تفيد بأن "سامية" قبل سجنها، كانت حسناء مشاعة بين المارة والقطين، هكذا يلقّبها الجميع". وسكت برهة، ثم واصل كلامه في لهجة متزنة يخافها (ـ):" فكم تورددت إلى بستاني حديقة المبنى؛ ولم تحرم ساعي البريد عطفها وحنانها؟". وتنهد تنهدا حارا وهو يشعل غليونه ويمتصه في شراهة:" ولكنها تبدو من المحصنات المُنهى عن قذفهن؟!". وقال ضابط الحرس:" كان ذلك يا سيدي". فقال وكأنه اهتدى إلى خطة جديدة:" البحث يجب أن يتركز حول مسببات هذه الشمولية في حبها". وهز ضابط الحرس رأسه، وقال:

ـــ معذرة، لا أفهم.

ـــ احتكار قلبها لمحبة الفتات البشري.

ـــ مثلا؟

ـــ هل البستاني يستميلها أكثر من ساعي البريد

أو العكس؟

انتصب وهو يواصل:" هكذا تتم التحريات". في أثناء الحديث كان متزنا حينا، وطورا تمازجه أقصى حالات الانفعال:" تجنبوا الافتراضات المسبقة، لا تتلمسوا استغوار خلفياتها الغرامية".

ـــ وكيف؟

ـــ فهي لم تعدُ كونها معشوقتي ولا أقول عشيقتي.

ثم أردف وهو يربت على كتف ضابط الحرس:" إن المهم حاضرها، تحديد اتجاه مؤشر صدرها فقط". وانبرى ضابط الحرس مظهرا تأثره العميق:" لا أخال مؤشر صدرها مولى شطركم". الرجل المنحط القوام انصرف مُشيَّعا من قبل العم (ـــ)

الذي عاد إلى مقصورة مكتبه يذرعها جيئة وإيابا، كانت عدسة تفكيره مُسلّطة على حنايا الكلمات التي فاه بها ضابط الحرس منذ حين: لا إخال مؤشر صدرها مولى شطركم". لقد أتت هذه العبوة اللفظية الناسفة على كل أخضر في صدره؛ الأحاديث التي أعتبرها غنية ومنزهة عن التداول والنقاش أصبحت مادة شارعية لحوار الدهماء؛ شيء يبعث في نفسه الحسرة والكمد، لقد أنساه هذا النوع من الحديث ـ كما هو شأنه في كل مرة ـ صولة الرياح.

في هذا الأمر فكر وما أكثر تفكيره فيه، الباب يُطرق طرقا خفيفا محتشما لطيفا، لعله ضابط الحرس فهو لهيبة سيده وخشيته منه يمس الباب بأطراف أنامله خوفا من إزعاجه؛ وجيب قلبه أخذ يشتد بصورة لم يعهدها من قبل:" أدخل". الدم تجمد في قنوات عروقه، وقف منتصبا كالمعتوه، هيكلا محشوا بخرق القش والمتاع، خاليا من الدم والروح معا، إنها هي "سامية" تحجل في قيودها، جيدها استبدل بالحلي أغلالا، معصماها حلت محل أساورهما الذهبية سلاسل حديدية صدئة، خشنة، ثقيلة.

ـــ أهلا بمعالي (ـــ).

ومدّ يده في حركة عجلى يصافحها أو لتقبّلها كما تعوّد كقزم يستلين بضعف سحنته قلب عملاق عظيم:

ـــ مرحبا، مرحي.

أفي إمكانه استفسارها عن دواعي رفضها حبه؟ ترى هل يكون الجواب شافيا؟ أم كاشفا لعلة أكثر خطرا لا يعثر على علاجها؟ المصارحة في هذه الحال مغامرة تقوّض عمران الخيال، تستحيل معها مروج الآمال الخضراء الوارفة هضابا جدباء من اليأس شامخة، يصعب تسلق أدغالها.

ـــ أراك تديم التفكير كما لو أنك دعوتني

للنزهة على سباحتك في تأملاتك.

ـــ إنما أديم التفكير فيك، وفي...

ـــ وفي ماذا أيضا

ـــ في لا أدري.

ـــ جميل بالمرء أن يجهل ما يفكر فيه.

كلمتها عقلت لسانه عن مجابهة الهجوم المضاد، كعادتها أبدا كلما عانقتها نفسه المتصابية؛ لعنته نفسها المترفعة عن كل غلواء:" إيه؛ أفكر فيك كمائدة تتصدر حلقة الفُتات البشري المتضع؟". وإليه رانت بعينين يتطاير منهما ما يشبه الشرر:" بل كمارد طال أمد اختزانه بقارورة مشعوذ". وأضافت مواربة ألامها وتأثرها البالغ:"

وما المانع من أن تشرّف هذه المائدة (المشاعة) بحضورك إحدى حلقاتها؟". هذه الكلمة أنعشت ثنايا قلبه الدامسة، لقد أخذت" سامية" ترعوي عن غيها، أصبحت تشعر بخطر مركزه، هكذا قال في نفسه، ولنفسه، ثم وجه كلامه إلى الحارسين القابعين على رأس الحسناء المكبلة:" فُكّا أغلالها ثم انصرفا وادعوا النادل للإتيان ببعض المرطبات".

واصل حواره الممتع في نظره، رغم ما يتخلله من لسعات كلامية يتقبلها راغما:

ـــ إنك مائدتي ولا يمكن للفتات البشري

أن يزاحمني عليك، تلك حقيقة يجب

أن تدركيها.

وقالت في دلال مصطنع:

ـــ وما الضير في أن يشاركك فيها آخرون؟ أتمانع

لبخل أم لأثرة؟

حدّته عاودته رغم أنه ظل يحافظ على مزاجه الرائق لكيلا تغضب:

ـــ هذا تنازل والتنازل كلمة غريبة عن قواميسي

كما تعلمين.

ـــ حتى ولو كانت هذه المائدة لا ترى في نفسها

سوى أعواد أصاغتها أيادي الجميع؟

ـــ أيادي الجميع؟؟ !! غريب ووحشي كلامك.

واستطرد مشتطا:

ـــ تبا لهذا الجميع فتعلقك به هو سبب سجنك المؤبد.

وصاح بملء فيه؛ وقد بلغ منه الغضب مبلغا عظيما:" كفى أيتها الخائنة

المتنكرة، إن مشهدك مع البستاني وساعي البريد وجمع المراهقين ماثل في ذهني لا يريم؛ كفى". فقالت في همس دون أن تجاري شدة لهجته:" لم ينجب لقاؤنا حبا أتنكر له، ولا ولدت حبلاه مودة أخونها". فتراجعت ثورته وسأل:" وكيف؟". قالت كأنما هي ملزمة بشرح:" كان لقاء فجائيا خاليا من نوازع الصدر ولواعج الشوق، وسيتلوه فراق حتمي لم يقرضه الماضي دَيْنا يتحرج من تسديده".

وعاودته نوبات الغضب:" أيتها الخائنة أتصارحينني بانتسابك إلى عالم السفلة؟". وبعد هنيهة من التفكير أضاف متنهدا:" لقد حاولتُ عبثا أن أخلق منك امرأة تتبوأ مكانتها ضمن الصفوة التي تبسط أرجلها على رؤوس الجميع، لكن ما حيلتي و" **طبع النفس لها قائد"(**)** قالت وهي ترقب قسمات وجهه، وقد أدركت أن الشيخوخة أخذت تحتضن سحنته الهزيلة: " إنما الخائن من لا يصارح نفسه؛ من يستمر في خداعها؛ وداعا". وصاح بأعلى صوته:" أيها الحارس خذوها إلى القعر المظلمة فهو المكان الكفيل بإعادة ما عزب من عقلها:"". ولما هما الحارسان باقتيادها، استطرد:" ذروها فقط تسمع كلمة مني، انصرفا". كلامه واصله في تحد، عيناه تتغازلان في أرجاء المقصورة الفارهة:" حينما يتحول كلامي إلى أمر بالسجن، أرى الأجوبة تتجمد في الذهن".

انتصبت " سامية" واقفة وهي تحدّجه بنظرة تنم عن سخط وكراهية متناهية، وبسرعة البرق قبضت على قارورة المشروبات قبضة محكمة، فلطمت بشظاياها رأس العم (ـــ)، فسقط يتشنج على منضدة المكتب التي تضرجت بسائل قان ينهمر من خياشيمه، وهو يلفظ بقايا أنفاسه؛ وضغطت على شفتها السفلى بأسنانها وهي تردد بنبرة المُتشفّي:" بل حينما يكون أمرك بالسكن فإن الجواب يأتي ـ ربما ـ أكثر إفصاحا وأشد اتزانا، صحيح أنا أحب الأخرين ولكنه حب برئ".

(*) نشرت بالعدد"42" من مجلة آمال (نوفمبر/ ديسمبر1977).

(**) معنى العبارة من بيت للمتنبي:" وكل يرى طرق الشجاعة والندى * ولكن طبع النفس للنفس قائد".**

ظـــــلال السنـــيـــن:(*)

إنني في هذه الأمسية على غير عادة مني، رائق المزاج، في كلامي دفء، نظراتي إلى ما يُعرض عليّ من قضايا كنتُ قبلا لا استشفها إلا لماما، فيها استقرار غير مألوف، راغبا أصبحت عن تمديد المخادعة، رحيما بنفسي من أن أقذف بها في حرب قوامها العصي والحجارة، في إمكاني أن اقتصر في عرضي التقييمي على الأهم، بدعوى أن رجلا مثلي ، على شاكلتي، لا يمكنه السباحة في بحر من الحيثيات المملة، لكنني عدلتُ عن الاستمرار في هذا الأسلوب؛ لولا ذلك، للقمت أفواههم حجرا، بالمدرسة، بالتعاونية، بمئات الأشجار، بشبكة الطرق...ب...ب...بحقائق دامغة حرّي بالعرض أن يتمحور حولها.

طبعا ليس من بينهم من سيصرخ في وجهي:" أخرس! لعلك تعني المدرسة التي أقمتها بحي سكنك، التعاونية المحاذية لضيعتك وما يحيط بها من أشجار، شبكة الطرق المفضية إلى مراعي مواشيك". ليس من بينهم من يحمل متفجرا كهذا؛ حتى حاملوه سيتخوفون من عودتي الفجائية إلى البلدية، فسُبل العودة ليست واحدة على أية حال، إن من بينها ما يشبه الرصاص الكاتم للصوت، لا يتكشف مفعوله إلا بعد تحقيق الهدف. معظمهم لا يتصور المؤسسة بمعزل عني، كأنني إلى جانبها مزيج مشهد واحد في لوحة زيتية متكاملة، لقد كان لتكرار السنين أهميته في ترسيخ هذه الفكرة.

بالأمس وأنا أذرع سلم البلدية الخارجي، في طريقي إليها، إلى السلطة، جئت أحمل مشروعا مختلفا، تصورا مناقضا لمشروع سلفي حاج عطاء الله، جئت حاملا مقص العملية معتزما إصلاحها، إذابة التيار الخفي الذي يكوّن صلب جاذبية الدوامة، صممتُ أن أمضي في طريق تمر السنون دون أن أحيد عنه.

قبل استلامي زمامها، اغتسلتُ بدموع الأرامل، رددتُ رجع صراخ الأيتام في جنبات الشوارع والأكواخ، تظلماتهم حفّزتني إلى الوثوب على مقعد المؤسسة؛ حين صيح في وجهي:" هيت لك". لقد آن للدعاوى التي روجتُ لها في الشارع سنين، أن تتبلور، أن تصبح ورقة عمل، المكتب ولجتُه مسرعا، تجسستُ نبض التيار الجانبي؛ كان قويا وأية قوة؛ يحمل بذور الإعصار، حاولتُ التحكم في مساره كمن يود

استبدال ريح الجنوب بالصبا؛ لن انتظر أوامر فوقية، فالحلال بيّن وأيضا الحرام، ضاعف من عزيمتي أن التيار لم يستطع إبعادي، أو قذف ثقلي، فأنا؛ أنا الكل. شعور قوي بهذه الحقيقة كان يغمرني، يصاحبني في رحلة الظلام، يدفعني، أمامه توارت مظاهر كثير من السلوكات التي كانت قد أصبحت من قبل شائعة كقواعد أساسية، ثابتة للحياة،

مكتبي صار ساحة لقاء للوافدين من جميع الفئات، أفقدتُه صفته ككعبة للحجيج وحدهم، زياراتي كانت غبا، لقاءاتي مثلها بتراء إلا مما له صلة بالمؤسسة، معاملاتي مكشوفة واضحة، مقابلاتي الانفرادية نادرة، خلوتي بالناس منعدمة، تصورت نفسي يومها رجلا مشاعا للجميع، ملكا لهم.

قيل لي إنك مخدوع؛ مخدوع بالشعارات ذلك قيل لي في تحفظ نافذ؛ خمرتها لعبت بخلدي، فكرتُ، فكرتُ، خففتُ السرعة، وقفتُ مشدوها كمن به مس، حددتُ موقع قدمي، قدماي معا، تقصيتُ مناحي الدرب الذي اِئتلفتُ السعي بين جنبات رصيفه، فكرتُ في العدول عنه، في استبداله بطريق جانبي معبّد رغم أنه جانبي.

فترة الإلحاد السياسي هذه تطاولت بي، عشتُ من دون مبدأ قار، اجتر من غير هدف محدد، تضاعف الضغط، اضطربت الدوامة، الشراع سقط مني، جاهزا كنتُ للوثوب على مائدة حاج عطاء الله، لقد أفلح ومن معه في استدراجي نحوها، لعنتُ فلسفة الحيدة، منطق الاعتزال، إن التفرد في هذه الحال، معناه الانفراد، والانفراد حين يفقد صفة الشاعرية؛ أو المصلحية، يستحيل سجنا بدون قضبان.

على أنغام صراخ الأيتام رقصتُ طربا، لذتي وجدتُها في التبول على دموع الأرامل الكئيبات، لأكوّن من المادتين؛ من تداعي الضعف أمام القوة مذاقا لذيذا، ظننتني أخطأتُ في حقك أيها المكتب الموقر، حينما اتخذتُ منك حظيرة لإيواء مختلف أنواع البهم، شاطرتُك الرأي في أنك شبيه بمعبد لا يرتاده إلا من أنفق في سبيل القائم عليه خدمة، أما من يتصورك دمنا يأوي إليه الجميع فما هي إلا مراهقة تفتقر إلى التجربة، ليس إلا؛ ليس إلا.

الباب كان في هذه الأثناء يُطرق طرقا خفيفا، غادرتُ مقعدي الوثير في طريقي إليه، إلى الباب، وما أن فتحتُه حتى ألفيتُ نفسي وجها لوجه أمام كاتب البلدية، أمينها العام؛ ملاح الدوامة المقتدر.

ــ تفضل، كيف أمضيت الزيارة؟

ــ الصفقة رابحة.

وابتسمتُ نصف ساخر:" هذا المهم". كلانا أخذ مقعدا، وبادرني الكاتب:" ماذا قررت؟". سألتهُ:" بشأن ماذا؟". قال:

ـــ بشأن المحاسبة، ما هي إلا أيام قلائل وتجد نفسك أمام السكان!

ـــ دع عنك هذا.

ـــ إنه يحتل تفكيري، صدّقني.

ـــ هذا ما يردده جميع أقطاب المحيط البلدي.

ـــ وكيف؟ وأنت أملهم الوحيد؟

وفترت شفتي عن ابتسامة عابرة، شبه ساخرة:" منذ حين كنتُ أحاكم نفسي". وتضاحك الكاتب الأمين:" لا تقسُ عليها أرجوك" وتنهدتُ:" ولكنها قست عليّ". فعاوده ضحكه غير المستقر على حال: "أو صرت صوفيا؟". وأضاف جادا:" أو عدت إلى عهود الخيال المظلمة؟". وأعدتُ تنهدي:" ليتني وقفتُ عندها يا خالد". وأشاح بذراعه نحو النافذة:" وإذن لصرت أفقر سكان القرية". وهززتُ رأسي:" وفي ذلك شهادة وأي شهادة". شخّص الكاتب سؤاله بأصابعه:" تحتاجها فيماذا؟". وأنا أضرب على منضدة المكتب:" في استئناف مهمتي" وقال الكاتب هازئا:" وما جدوى مهمة لا طائل من ورائها؟". ثم مضيفا وهو يعدد:" فيلات، شاحنات، محلات تجارية، جاه، الخ، الخ".

ـــ ثراء باختصار؟

ـــ أجل.

ـــ وهل هو طائل؟!

قال في غضب وكاد يقف من مكانه:" هذه فلسفة؟". فضحكتُ: " لا طائل من ورائها أيضا". ابتسم وهو يقول جادا:" ماذا قررت؟ اِفعل شيئا؛ الوقت لا يرحم".

ـــ مؤامرة حسبما يبدو؟

ـــ ولم لا؟ مادام الأمر يتعلق بمجدك؟

ـــ نم هادئا يا خالد.

وقفز وقد أبرقت عيناه:

ـــ أوجدتها؟

ـــ ماهي؟

ـــ المؤامرة.

ـــ نعم.

فرحـــــــــــــا:

ـــ وكيف؟ أيها الداهية العظيم؟

واعتدلتُ في جلستي، وضممتُ يديّ إلى بعضهما، وقلتُ:" سأستعرض سيرتي بكل أمانة طيلة هذه المدة، على رؤوس الأشهاد؛ إيجابيها وسلبيها". وفغر فاه ثم صاح:" هل جُننت؟". قلت في هدوء:" إنما استعدتُ عوازب عقلي؟". وضاربا على الطاولة في نرفزة:" أي عقل هذا الذي سيرمي بك في غياهب السجون؟". وفي تصميم:" إنه قرار ناجم عن لحظة احتكام إلى الضمير". وقال الكاتب صارخا مرة أخرى:" ولكننا أطراف في ما حدث؟" قلتُ: " لم يكن للأخرين تصور بأنني فعلتُ ما فلعتُ بمفردي". وغادر مقعده في طريقيه إليّ؛ وقد اشتدت ثورته، ووضع يده على رأسي:" حاج عبد الحاكم، إنك قادم على تصريح خطير؟". نظرتُ إليه مليا ثم همستُ:" كأي اعتراف يصدر عن رجل أساء التسيير". يضرب على صدره:" أساء؟! وهل نحن أيضا أسأنا؟". قلتُ باسما:" ما دمتم أطرافا في الذي حدث؟

وكأنه يراودني ألا افعل:

ـــ وما نتيجة اعتراف كهذا؟

ـــ إراحة الضمير.

ـــ وكيف سيرتاح ضمير يحوز على ممتلكات الغير؟

ـــ قررتُ إعادتها عليهم ولو بقي ظل وقائعها.

ـــ وسمعتك؟

ـــ ليست بأخطر من تبكيت الضمير.

وسخر الكاتب ساخطا:" الضمير؛ الضمير، مذ الآن فقط أدركت أن لك ضميرا". وواصل وقد هدأت روعته نوعا ما:" ونحن؟". قلت في إصرار:" تصنعون مثلي أو...". وانشده إلى أن اتسعت عيناه غرابة ثم قال:" أتهددنا؟". قلتُ في هدوء دائما:" الواقع يهددنا معا، يا أخي".

لم يستقر في خلد خالد أنني سأقدم على ما خاطبته به، فخالد قد أدرك حقيقة نفسي، وهو يعرف أيضا أن تشبثي بالبراءة، قد فات أوانه لأن شراهتي لم تتوقف عند حد معين، تماما كرغبتي في الإصلاح قبل مجيئي إلى البلدية، ومعرفتي بخالد، ولعله لذلك أكد لي بقوله:" وهل تعتقد أننا من الغفلة بحيث أقدمنا على ما أقدمنا عليه تاركين من الثغرات ما سيثبت إدانتنا؟ إن وثائقنا ومستنداتنا جاهزة لمجابهة أي مدّع، وهي منسجمة تماما مع قواعد التسيير السليم".

(*) نشرت بالنادي الأدبي الملحق الثقافي لجريدة الجمهورية.

ســـر الغبـــاوة:(*)

" واللـــه لو أردت أن أكون عظيما

ما عجزتُ، ولكن قاتل اللـــه الكرامة"

نجيب محفوظ

أمور مستجدة على جانب كبير من الأهمية والخطورة عرفتها مؤسستنا، موقفي منها ظل وسطا، مزيجا من تفاؤل وتشاؤم، تفاؤل قائم على تعلات واضحة، وتشاؤم مستند إلى خلفيات بينة، لستُ جبريا قاصرا، إلا أن الأيام صنعت من عجينتي هيئة تُدين بمبدأ الحتمية؛ عجينة تستلينها الظروف فتلين، الأيام ـ كأي أستاذ أخر ـ تُخلّف بصماتها على كل ذهنية تتلقى عنها، وقد أراد أستاذي هذا أن أكون تلميذا وسطا، يعرف السرور من حيث هو مشاركة في أفراح الأخرين إذا ما فرحوا، ويتصور الحزن إسهاما في آلامهم إن مسهم ألم، في الحالة الثانية أجدني أكثر تأثرا مني في الحالة الأولى، لعل لأن الألم بطبعه نفّاذ إلى مغاور النفس البشرية، وأكثر قدرة على الإيغال في أعماقها.

اليوم، أمام هذه اللحظات السارة للبعض، المؤلمة بالنسبة للبعض الأخر، لا أدري أي الفريقين إلى الحقيقة أقرب؟ وحدتنا تعيش حدثا فريدا من نوعه، في حجمه في حياتها، كان قد استدعى معالي الرئيس المدير العام للشركة بهدف الإشراف المباشر على توديع المدير السابق، لترتمي الوحدة بعده بكل ثقلها، بين أحضان سعادة المدير الجديد.

الحدث أضفى على واجهات البناية الضخمة أثوابا جديدة غيرت رونقها، وعلى أروقتها حركة دائبة تمور بالهمس، بالإشارة، حسبهما الفريق المسرور من العمال احتفاء بمقدم المدير الجديد، وخالهما الفريق الخصم للمدير القديم وداعا جميلا، بين هذين التيارين؛ هذين المشهدين المتناقضين، انتصبتُ فاسحا المجال لسؤال ثقيل يمخر عباب خلدي:" أي الفوارق الطبيعية/ النفسية/ قد تمايز بين الرجلين، أ تراهما مزيجان لخليقة واحدة؟". سؤال مكبوت خلته لا يمر بحيرتي

الفئتين معا، مسحة من سهوم ثقيل راعتني وهي تشكل قاسما مشتركا بين وجوه عمال الفريق المودع؛ فريق الحقوق كما شاعت تسميته في عهد المدير السابق، نوع من الاعتدال في أمزجة الفريق الأخر شد نظري، فريق الواجبات كما أراد أن يكني نفسه في غير ما تصريح، أو كما أرادت له الأيام؛ أستاذه. ساكنا لم أحركه، تفكيري يحتله سباق عجيب اشتدّ مذ البارحة بين الطرفين، كلاهما شرع في عرض أخر ما تمتلكه عضلاته من جهد، أتى على ما تبقّى في جعبته من دهاء؛ خالعا على تحركاته من الاعتدال المفضوح نصيبا وافرا، عله يقنع البقية المعتزلة، أنه لم يأت إلا سلوكا طبيعيا غير شاذ عن قواعد الحياة، ولا صلة له بالمناسبة، إلا أن المبالغة قد جاوزته حده فتراءى للأعين نفاقا.

الجمعان أجمعا أو يكادان على أنني غبي؛ سطحي؛ خيالي، لا مبال بما يبالون به، أكل هذه الصفات والنعوت لمجرد أنني انزوائي بطبعي؟ حيادي بسليقتي؟ وسط كما شاء أستاذي أن يصنع مني؟ أنبذ الانتهاز وألعن المصلحة الضيقة؟ فالأيام ـ وهي أستاذي ـ لم تُغفل جانب الملاحظة الدقيقة في تربيتي، فكدتُ بفضل ذلك أكون خريج معهد النفس البشرية، وطبعها الشبيه بطقس نيسان المتقلّب، لولا أنها حقيقة ـ من يدري ـ قد تضحك الأخرين من الطرفين.

وحدتنا كانت مخبرا ألمهني مهارة الطبيب النفساني، الخبير بتلون النفس، وخستها، لا يعوزني في ذلك إلا خلة الرغبة في التصريح بنتائج عملياتي النفسانية، فقد تقصيتُ النزوات، أحطتُ بدوافع الفريقين على الحركة، نزوعهما أحيانا إلى السكون الحذر إلا أن لكل نفس دربها، وقد تذهب الرغبة الجموح الشرهة بعدد من الأنفس إلى التجانس، دون أن يشيع هذا التشابه فيما بينها أعمق خصائصها الغريزية السالبة.

إزاء الفرح وبواعثه بالغتُ في تحفظي، جاوزتُ الامتناع عن إعلان النحيب أيضا، ولكن الفريقين بالغا في اصطناع الأمرين كلاهما، فأدخلا العنصر البهلواني على برامج الحفل أو مراسم المأتم، نفسي لن أخادعها فأزيل عنها صفة الاعتزال الجوهرية في تصرفاتها، فأنا أكثر يقينا من لقاء التيارين، من خلال أسلوبين متناقضين، لدى عتبة المدير الجديد، حيث الزعم بالإجماع على دخول الوحدة عهدا جديدا، والمحتفون كما عجزوا عن مواجهة المستهدف بذلك صراحة، سيخفي الخصوم حقيقتهم عن الوافد الجديد، وإذن كشأنها منذ القدم ثكلت وحدتنا عنصر الصراحة في معاملات موظفيها.

في وضع شبيه بالذي تعيشه وحدتنا، لا يمكن أن يتصف الساكنون بالغباوة، ولا الجامدون بالتحجر، ولا الثرثارون بالذكاء، ولا المتحركون بالدينامية والمبادرة، ولا الانطوائيون باعتزال الأمور.

يوم الحفل، بزاوية القاعة الفسيحة، وفاني زميل لي في المهنة، أعرفه لا كفلان فقط، ولكن كنمط بشري استفاد أيما فائدة من الظروف، أتباعه حرصوا على تلقيبه بـــ" مستشار" الوحدة، وثأر خصومه لمقتضى الحال فأسموه" فأر" الوحدة، قائلا بادرني:" إنك لغريب الأطوار يا أخي؟". على غرة مني قذف بسؤاله، أو ملاحظته:" وما وجه الغرابة في أطواري؟". قال:

ـــ خلوك النهائي من المواصفات المجتمعية المتداولة.

ـــ مثلا؟

ـــ إغفالك التفكير في استمالة قلب المدير الجديد.

قهقهة ساخرة انفجت مني، بددتْ صمتي أجهضها صاحبي بقوله:" ما بك؟". قلتُ: متى كان المدراء عذارى يُستبق على امتلاك قلوبهن؟". قال مظهرا آسفه:" لاتزال متعصبا لأفكارك القديمة". قلتُ: قديمة؟! وما البديل في نظرك؟". فقال بصوت صارم:" الدرس". قلتُ وأنا أشد على ذراعه ليُفهمني أكثر:" أي درس؟". وتنهد:" الذي استخلصته من عهد المدير السابق". قلتُ متجاهلا:

ـــ وكيف؟

ـــ في ظله تحولت وضعيات كثيرة نحو الجاه والثروة.

أكملتُ كلامه: " وأخرى نحو الحضيض كوضعية الوحدة ذاتها، أليس كذلك؟". ثم أردفتُ:" أي جاه ترى في ذلك؟". الزميل ابتسم وكأنه يترك الجواب للواقع، للتباين الصارخ بين الوضعيتين: وضعيتي المزرية ووضعيته المرفّهة، وقال مغيرا مجرى الحديث نوعا ما:" بالمناسبة ما هو الجاه في نظرك؟". قلتُ:

ـــ صفة تتحقق لصاحبها على حساب الكرامة غالبا.

ـــ دع مفهوم الجاه جانبا، بادر يا أخي بتغيير سبل

اتصالك بالمدير، لا تبقها سبل عمل فقط، اتعظ.

ـــ والبديل في نظرك؟

ـــ سبلي مثلا.

ـــ وهل أنا من الذكاء بحيث أدركها عفويا؟

ـــ إنك تعلمها جيدا.

ـــ ولكنني غبي؟

وابتسم وهو يردد في تحفظ:

ـــ من قال بهذا؟

ـــ (؟).

فأضاف:" لقد كان المدير السابق يعاملك على هذا الأساس غالبا؟ قلتُ:

ـــ ولكنه لا يؤمن بما تظاهر به.

ـــ كان يخادع نفسه إذن؟

ـــ قد يكون.

ـــ لم يكن ذكيا كما تصورناه إذن؟

ـــ كان ذكيا في غباء.

ـــ لا أفهم؟

ـــ يتصور الجميع أغبياء إلا هو.

زميلي عضّ على شفته السفلى، وكأنه أدرك حقيقة مُرّة ظلت غائبة عنه، وقال:" والمستفيدون من ذكائه أو غباوته في هذه الحال؟". قلتُ:" أذكياء في غباء". فسألني وأنا أجره من ذراعه نحو البهو حيث جلسنا لتناول مشروبات وقد شارفت التحضيرات نهايتها: " وكيف؟". قلتُ: " الذكي لا ينقاد وهم اقتيدوا راغمين". قال وقد أخذ يتناول قهوته:" ولكنها المصالح؟". قلتُ:" ليست موضوعا لاختبار نسبة الذكاء لدى الإنسان". وهمس وهو يطلب إضافة قدر من مادة السكر: "كنا فعلا نتصور الأخرين أغبياء إلا نحن". قلتُ:

ـــ ليس الغباء وحده ترجمة لتصرف الأخرين،

فهناك الغباء الإيجابي المعروف باللامبالاة.

قال متعجبا: "غباء وايجابي؟". قلتُ:" نعم، لأنه لا يضير صاحبه ولا الأخرين؛ ومن هنا إيجابه". وقال صاحبي:" وهل علم المدير بهذه الحقيقة؟". قلت:

ـــ إذا ما كان ذكيا كما تعتقدون.

ـــ أنفساني أنت؟

ـــ تساعده التجارب.

ـــ قد يخافونك؟

ـــ لا يهم.

ـــ والمهم؟

ـــ أن نعرف الأخرين دون أن يدركوا معرفتنا لهم.

متنهدا:" لم استشف الذكاء من هذه الناحية". وأضاف:" تصورتُك شاذ التفكير؟". قلتُ:

ـــ تلك صفة مثلى.

ـــ وكيف؟

ـــ أن تكون شاذ التفكير، شامخ الرأس خيرا منك مصلحيا منحط الخاصرة.

ـــ هذا غرور.

ـــ في قاموسك فقط.

ـــ بل في قواميس الجميع.

ـــ دع الجميع جانبا.

وقال ضاحكا:" مغرور هو أيضا؟". وتضاحكتُ بدوري:" (غبي) يتألم (لذكائكم)". قال:" وما علاقتنا به؟". قلتُ:" اسمه كشعار". قال:" فقط؟". قلتُ:" فقط؛ فقط". عبأتُ من كوب الليمون جرعة واحدة وأنا أردد:" كان عليّ أن أبقيهم يتخيلونني غبيا".

(*) نشرت بالعدد "4082" من جريدة الجمهورية عام 1978.

سيدة الحي الإمبراطوري:

ـــ أتخالني متسولة؟

ـــ كلا؛ ولكن لتكتمل زينتُك.

ـــ أليست بمكتملة؟

ـــ بما فيه الكفاية.

ـــ وإذن؟

ـــ لاكتمال حالتك النفسية أيضا.

ـــ خاتم سليمان هو؟

ناولها الخاتم رغم احتجاجها المفتعل، أقفل الباب خلفها، عاد إلى مكتبه بالعيادة، يفكر في أمرها، يستعيد وقائع حالتها، لم تكن خجولة منطوية، متحفظة المزاج كعهده بها في المرة الأولى حين التقيا بصدر قاعة التحاليل التي تتوسط غرف العيادة.

أسباب الكلفة زالت بينهما تقريبا، وها هي ذي تبدو مطمئنة إلى تحاليل الدكتور" مراد" النفسية، التي اعتادت أن يجريها عليها كلما امتثلت أمامه في طواعية محببة إليه، واحتشام يرضاه.

إن الاطمئنان في نظر الدكتور مراد من أهم الوسائل التي تفضي حتما إلى التعجيل بشفاء مرضاه، ويبدو أن حالة السيدة " آسية" تشارف تصديق هذا الاعتقاد، رغم بوادر الحيرة التي تستأثر بنظراتها في شكل إجفال يعاود رموشها بين حين وحين، فلا تستقر على حال.

كانت عيون الدكتور مراد تتأمل تقاسيمها وهي تتغير تبعا لاشتداد حالة الرعشة ومضاعفاتها التي لم تكن في مستوى ما يشاع عنها، ولاختبار اعتقاده جدلا، طرح سؤالا مرفقا بابتسامة بريئة:" هل أنت مقتنعة بتحاليلنا؟". وكأنها تجيب على ابتسامته أكثر من جوابها على سؤاله:" أجل، فأمنيتي الوحيدة أن أحاوركم يا دكتور". شفتيه لمظهما بلسانه، في جلسته خلف المكتب اعتدل، بصره رفعه إليها في

هدوء، نظراتها كانت مصوبة بقوة نحو الأوراق التي بين يديه، وما عتم أن قذف بها إلى الدرج، درج المكتب متتبعا حركات بصرها، وجهها عكس شبه صدمة حاولت إخفاءها بقهقهة باردة، رغم ما أضفته عليها من رقة ودلال.

نظراتها الحيرى لاتزال مسلطة على سطح منضدة المكتب، قهقهتها دليل على أن اهتمامها كان مركزا على شيء ما فوق المنضدة، ما هو؟! تساءل الدكتور مراد. أإلي محيط المكتب؟ أهو التفكير يأخذها في شبه إغماء؟ أهو اهتمام فضولي بشكل المكتب؟ بمحتوى الأوراق؟ بنوعية القلم؟ إن التفاتها غير الواعي إلى أي من هذه الأشياء، ينم عن خلفيات تساعد في العلاج ولا شك.

الدكتور مراد أخذ يستعد لعملية التحليل بالأشعة، قال مغادرا مقعده الوثير:" لقد استجوبناك بما فيه الكفاية". فقالت في قرف:" أما بقي هناك من أمل يا دكتور؟". قال:

ـــ الأمل كبير بعد إجراء عملية التحليل الإشعاعي.

ـــ متى؟

ـــ مذ الآن.

قالت كلمتها الأخيرة وهي تقفز من على مقعدها، واضعة رداءها الأصفر القاني على مشجب محاذ، صدرها بدا متوهجا بقطع مجوهرات تماما كمعطف بطل عسكري موشى بالنياشين والأوسمة، الدكتور مراد ابتسم مواربا غرابته من هذا الحمل الثقيل الذي تئن به سيدة تزعم أنها متعلمة وفي مقتبل العمر، ولاحظت ابتسامته فبادرت:

ـــ لكأني بك تستغرب ما ترى؟

ـــ وما جدوى غرابتي؟

ـــ إنه نسبة جد ضئيلة بالقياس إلى معدات جارتنا.

وانفجرت من الدكتور مراد قهقهة صارخة فقد معها وقاره، وهو يقول:

ـــ تقيمين بحي امبراطوري على ما يبدو؟

ـــ سواكنه جميعهن متمدينات.

ـــ وكيف ذلك؟

ـــ ليس من بينهن إلا من تدّخر أكثر من ما بحوزتي.

وهو يشير عليها بالاقتراب من جهاز الكشف:

ـــ كل منهن تتوفر على المقياس "الجوهري" للتمدن إذن؟

ـــ أجل.

ـــ تطالعين الكتب بدون شك؟

ـــ والمجلات باستمرار.

ـــ أي نوع منها؟

ـــ كل ما تقع عليه يدي.

ـــ وهل فيها تحريض على التحلي بكل هذه المجوهرات؟

وابتسمت دون أن تجيب، وعاود رموشها إجفال غير ظاهر، وواصل الدكتور حديثه، وهو يضحك:" حتى صاحب " **ألف ليلة وليلة**" أشار إلى أهمية **"ما خفّ حمله"**. وشاركته في ضحكه، دون أن تشاركه الحديث.

هذه العملية، عملية التحليل الكيميائي ضاعفت من حيرة الدكتور مراد، إن التحاليل وصور الأشعة انتفت انتفاء علميا جازما أي عارض فيزيولوجي قد يكون أصلا أو انعكاسا لمثل هذه الرعشة المحمومة الحادة، التي تمتلك السيدة "آسية" بين لحظة وأخرى.

وأمام انعدام أي خطر عضوي، يستحيل إثبات حالة نفسية ما، مبدأ من المبادئ النفسانية المسلّم بها لدى الدكتور مراد، بيد أن السيدة آسية تجسّم هذه الظاهرة الغريبة بشكل لا يدع مجالا للارتياب، إن الرعشة التي تصيبها بين لحظة وأخرى، ليست بعارض لأي نوع من أنواع الحالات النفسية الشائعة، والمتداولة بين أطباء النفس.

استقرت على المقعد ثانية، وكأنها تودع المكتب بنظرات مشوبة بخجل، بينما انهمك الدكتور في مراجعة المستندات التي تتعلق بحالتها، إنها سيدة في عقدها الثالث، مثقفة، نمت في بيئة شبه متفتحة رغم نزوعها إلى وقار وراثي ممل غالبا، متزوجة، تشتغل، زوجها ذو مركز محترم، لم تنجب بعد، هوايتها ـ كما اعترفت ـ التطواف بالمتاجر؛ الوقوف أمام الواجهات، وضع الملف جانبا، فكر في ملازمة هذه السيدة عسى ضائقتها النفسية تعاودها بحضرته، فيتمكن من تشخيصها.

إن انصراف عينيها تلقاء المكتب يثير في نفس الدكتور أكبر تساؤل لا يوازيه إشكالا إلا إدمانها على التحلي بهذه الكمية من المصوغات، وهي في حالة مرض، كما تدّعي، تماما كما لو أنها بصدد المشاركة في زفاف.

ـــ أراك تداومين النظر إلى المكتب؟

اصطبغ وجهها خجلا، وهي تصرف نظرها عن المكتب شيئا ما، لتعاود تأمله بعد ذلك؛ الدكتور مراد أدرك أن ما يحيرها لا يتجاوز مكتبه، فراح يتصفح محتوياته الظاهرية؛ وأخيرا فغر فاه؛ عقد حاجبيه وهو لا يصدق هذه الخاطرة التي خطرت بباله، أتكمن حالة هذه السيدة المثقفة في تعلقها بذلك؟ **بخاتمه** الذي في إصبعه؟!!!! عجبا؟

الممنوع من الصرف(*)

في قاعة درس ما، أراد الأستاذ اختبار تلامذته فاختبروه بدورهم:

1 ــ مبادئ ونهايات:

التلميذ الضرير:

ــ الشمس؟

الأستـــــــــاذ:

ـ تلفح الجباه في تموز، على أن تضمحل أمام
لعسات كانون؛ مصدر الإضاءة وعلة الاحتراق.

التلميذ الخامس:

ــ بل العصافير؟

الأستـــــــــاذ:

ــ الغراب عصفور، نعيقه يزعج سكينة البلبل
صوت الهزار يصيّره متهدجا.

التلميذ الرابــع:

ــ قد يكون القمر؟

الأستـــــــــاذ:

ــ باسم النور يبزغ، وباسمه يتوارى دون أن
يخلّف سنا على الكون الداكن.

التلميذ الثالث:

ــ لعلها الأشجار؟

الأستـــــــاذ:

ـــ حين تشكو الفواكه غير الطازجة بطبعها اقترار حبات النسغ المتجمدة، تهيض الريح الأوراق، تذوي الأفانين احتجاجا.

التلميذ السادس:

ـــ الأنهار؟

الأستـــــــاذ:

ـــ قلوب سلت بغريزتها، لا تتحمل أكثر من فيضان موسمي.

التلميذ الثـالث:

ـــ الذهب؟

الأستـــــــاذ:

ـــ بريق مغناطيسي يبهر العيون المحمرّة بالوراثة.

التلميذ الثانـــي:

ـــ الأرض، أجل الأرض؟

الأستـــــــاذ:

ـــ لغز يربطنا به لغز أكثر تعقيدا.

ـــ ليست بمقاييس دقيقة.

قال أستاذ المفعول المطلق.

ـــ هناك مقوّم حسي فريد.

أضاف أستاذ مادة المفعول المطلق.

ـــ أستـــــاذ ما هو؟ أستاذ ما هو؟

ـــ " نهى" يا أبنائي، أجل.

التلميــذ الضرير:

ـــ وما شكل " نهى" يا سيدي؟

الاستـــــــــاذ:

ـــ ما شاكل نهى يا ولدي.

2 ــ رواق بوابة العدم:

المقاومة شعور غريزي عند الحشرة المضرة؛ للفأر وجهته الخاصة في حرب العصابات الباردة الساخنة، التواء الرواق مظهر طبيعي في السرداب، الجنبات الدامسة جزء منه، ميدان فسيح.

الثـــاني: للعاشقين الحيارى.

الخامس: للقلوب السفيرة فوق العادة لدى تضاعيف الغسق، بدون تأشيرة.

الــرابــع: لرواد حانات الصد.

الثالـــث: لمدمني الظلام في السحر بالحارات المهجورة.

الثانـــي: للمتصابين الكهول في حقول قطع الأثد المبتورة.

السابـــع: للساعين وراء السحب الراكضة.

الســادس: للنفوس التي تجد لذتها في الفعل.

الثالـــث: للمتمردين على بوابة العدم، ينتظرون الإذن بالدخول.

3 ــ الصحيح المجرّب:

قال التلميذ الضرير هامسا:

ـــ لمختلسي الشمس، لمقبّليها من بعيد.

وقال الأستاذ مصححـــــا:

ـــ لعاشقي " نهى" يا ولدي.

وقـــــــال التلميذ الضرير:

ـــ للثواكل المتوثبات لأنجاب طفل فاعل.

الرابع:

ـــ يشع سنا العشق من عينيه الصغيرتين

السابع:

ـــ يرفض صرير العملات الصعبة.

الثاني:

ـــ يعانق خضرة العشب.

.

(*) نشرت بالعدد "4741" من جريد الجمهورية في 13 أوت 1980.